سفيان مقنين

جزائري في الأندلس

رحلة إلى الفردوس الموجود




الجزائر تقرأ

سفيان مقنين
جزائري في الأندلس
ردمك: 3-25-677-9931-978
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2018

الطبعة الأولى: أكتوبر 2018
الطبعة الثانية: جانفي 2019

الجزائر تقرأ
8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى
مدير النشر: عبد الرزاق بوكبة
إيميل: nashr@dzreads.com





مقدمة المؤلف

عندما قصدت مكة المكرمة برّا ذات شهر أوت من سنة 2005 لم أكن أعرف أن الخربشات التي دونتها حول الرحلة لتوزيعها فيما بعد على بعض الأصدقاء ممن رافقوني في السفر ستصبح سببا إضافيا لقبول توظيفي في محطة ورقلة للتلفزيون، بعد أن قال لي مديرها آنذاك أحمد بن صبان: إن من يكتب هذا الكلام ويبحث عن مكان داخل أسوار المؤسسة لا يصحّ أن يبقى في الجزء الآخر من السور.

وحين دوّنت بعضا من مشاهداتي وأفكاري أثناء أول رحلة لي إلى مدن جنوب إسبانيا لأقتسمها فيما بعد مع الأصدقاء على الفيسبوك لم أكن أدري أنها ستتحول بهذه السرعة إلى كتاب مطبوع هو الآن بين يديك بعد أن حاز ثقة دار نشر أشهد لأصحابها أنّهم لا يدّخرون جهدا في تجسيد فكرة الجزائر تقرأ وحتى الجزائر تكتب..

فعل الكتابة كان بالنسبة لي طريقة ممتعة ومفيدة للسفر ثلاث مرات في رحلة واحدة. مرة عند القيام بها، ومرة عند تدوين أحداثها، ومرة أخرى عند إعادة قراءتها، وربما انتابني إحساس رابع بالسفر مجددا كلما اقتسمتها مع أحد القراء عبر فضاءات النشر والتواصل الالكترونية، مع الاعتراف أن المرة الأولى أحسن من لاحقاتها لأن رائحة شواء اللحم في النهاية لا تعوض تناول قطعة اللحم ذاتها..

إذا أخذك هذا الكتاب في جولة مثيرة وأحسست أنك فعلا مسافر عبر صفحاته وفقراته فأنت قد حققت نصف الهدف من اقتناءه أو استعارته، وإن حفّزك ما جاء فيه على حزم حقائبك والانطلاق نحو السفر أيا كانت وجهتك فقد حققت الهدف كاملا، أما إن سافرت وعدت إلينا بانطباعات وأفكار ومشاهدات وأحداث عايشتها أثناء رحلتك مهما كانت بسيطة فأنت قد حققت هدفي الشخصي من هذا العمل ولك مني كل الامتنان والتقدير.

الإنسان لم يخلق ليتحدث بلغة واحدة فقط ولا ليعيش في مكان واحد فقط.. سيعلمك السفر أنك أحسن وأقوى وأذكى بكثير مما تعتقده في نفسك أو يعتقده الناس فيك. جرب أن تقترب من حقيقتك، بالابتعاد ولو قليلا عن حيّك، بلدتك أو مدينتك.. جرب أيضا أن تسافر وتكتب لأن أضعف أنواع الحبر أقوى من أي ذاكرة.

إلى والدي الكريمين اللذين أدين لهما بكل شيء جميل يحصل لي في الحياة..

إلى زوجتي العزيزة سهام وابنتي ياسمين ومن هو قادم في الطريق..

إلى كل أصدقائي عبر الفيسبوك الذين حرّضوني كثيرا على ارتكاب فعل الكتابة.

إلى كل مسافر يأخذنا معه عبر حكاياته وصوره وكتاباته ويقتسمها مع الجميع دون استئذان وعن طيب خاطر

إلى كل قارئ.. أهدي هذا الكتاب.

وهران ليست لمن يسكنها، وهران لمن تسكنه

On ne naît pas Oranais ..on le devient

هذا هو تقريبا شعور أي ساكن في هذه المدينة مهما كانت أصوله بعيدة عنها، شعور يجعلك في راحة واطمئنان لا تتاح لك بسهولة في مدن أخرى من الوطن، أين تضعك لهجتك ورقم ترقيم الولاية في سيارتك في بعض المواقف تجعلك مرتابا فيمن حولك أحيانا، كما تجعل من حولك مرتابين فيك أيضا.

قبل عامين من الآن كنت قد ضقت ذرعا بزحام السيارات في العاصمة رغم اتساعها وأتعبني ضيق أفق البعض فيها رغم علوّ مراتبهم في السلّم الاجتماعي والمهني، فرُحت أستعين ببرودة الأعصاب لمواجهة متاعب الناس، وبدراجتي النارية لاختصار المسافات والقفز على الزحام، إلى أن استيقظت ذات صباح ولم أجدها في مكانها في الساحة الداخلية للعمارة التي أسكنها.

كانت تلك قطرة أخيرة، أفاضت كأس صبري على ما تبذله أكبر مدينه في البلد من أجل إشعار سكانها بالتعاسة والتعب واليأس والملل والوحدة رغم الملايين الستة من السكان الذين تعج بهم المحروسة، والذين لا يزيدونك أحيانا إلا وحدة وانعزالا.

في وهران التي انتقلت للعيش والعمل بها (بعد تجربة قصيرة في العاصمة لم تتجاوز السنتين وأخرى في ورقلة لم يزد عمرها عن الأربع سنوات) لا أحد يسألك من أين أنت أو من أين أتيت، فالجميع كما يبدو ليسوا من هنا ولا فضل لقديم على جديد، المدينة تتسع للجميع دون استثناء. بل إنها في السنوات الأخيرة ازدادت نموا في العمران والتجارة وحركة الناس منها وإليها، لتصبح اليوم ثاني مدينة في البلد بميناءها الكبير ومطارها الدولي قيد التوسعة. كما وتبعد بساعة فقط عن مستغانم ومعسكر وتموشنت وبلعباس وغيليزان وساعتين عن الشلف وسعيدة وتلمسان وثلاث ساعات عن تيارت بالسيارة. وحاليا تفصلها ثلاث سنوات فقط عن موعد هام جدا وهو ألعاب البحر المتوسط المقررة في 2021.

المواعيد الرياضية الدولية في العادة فرصة لدفع عجلة التنمية الاقتصادية في أي بلد أو مدينة تحتضن الموعد، على الأقل من حيث تجديد البنية التحتية وتدعيم الحضيرة الفندقية وإطلاق مزيد من المشاريع الكبرى، أو كما يحدث حاليا في الباهية وهران. مع أنه من المهم أيضا (وهو ما تعمد له دول كبرى) دفع المواطنين نحو

ممارسة أكبر للنشاط الرياضي بكل فئاتهم العمرية وعبر كل الفضاءات العمومية والخاصة في المدينة، وفوائد ذلك على الصحة النفسية والجسدية والاقتصاد والسلوك العام لأفراد المجتمع أكبر من أن تعدّ أو تحصى..

في العامين الذين أمضيتهما في وهران اكتشفت مدينة لا تشبه المدن الجزائرية الأخرى التي أعرفها، مدينة تسهر إلى وقت متأخر ليلا، وتستيقظ بكسل مبالغ فيه صباحا، سكانها طيبون عموما وبداخلهم طاقة وحرارة كبيرة في التعامل والحديث، يتكلمون بصوت مرتفع جدا حتى عندما يحيّون بعضهم البعض في ساعات الصبح الأولى، يعيشون الحاضر بكل ما أوتوا من شغف ويبسّطون الكثير من الأمور في الحياة إلى درجة المغالاة أحيانا، لكن الطيبة والكرم والتلقائية والعفوية في الكلام والتعامل هي السمة الغالبة على طباعهم.

اللهجة الوهرانية بها عديد الكلمات من أصل إسباني فالأسبوع هو السيمانة والكيس هو البولصة والطابور هو الكولا والخزانة هي الماريو وماء الجافيل هو الليخيا.

ووهران هي أكثر المدن إسبانية في الجزائر، فقد مكث فيها الإسبان قرنين وستين عاما لم تنقطع إلا خمسة وعشرين سنة إبان القرن الثامن عشر حين حاصرهم الباي بوشلاغم لمدة طويلة نفذ معها مخزونهم من الطعام مما اضطرهم لاختراع طبق من طحين الحمص سيصبح فيما بعد أشهر طبق في منطقة الغرب الجزائري

بكامله وهو الكرنتيكة والمشتقة من الكلمة الإسبانية كلنتيتة وتعني بالإسبانية حرفيا «الساخنة». غير أن وهران عادت لتسقط من جديد في يد الإسبان الذين لم يتركوها في يد العثمانيين نهائيا سوى سنة 1792 بعد زلزال مدمر أهلك خلقا كثيرا بمن فيهم حاكمها الإسباني وزوجته، وخرب أجزاء كبيرة من المدينة وهي التي كانت أكثر الحواضر تحصينا في الشمال الإفريقي.

لم تغب إسبانيا أبدا عن وهران حتى بعد سقوطها في يد الفرنسيين سنة 1832، فقد كان سكانها بعد الاحتلال الفرنسي في معظمهم من أصل إسباني، ولا تزال القلاع والحصون وحلبة مصارعة الثيران وأسماء الأسماك البحرية شاهدة على وجودهم المباشر أو غير المباشر تحت الاستعمار الفرنسي.

ومثلما كان الإسبان متشبثين بوهران لعشرات السنين حتى يكون لهم موطئ قدم في شمال إفريقيا كما هو الحال في سبتة ومليلية والجزر الجعفرية وجزيرة البرهان وجزر النكور وصخرة باديس وجزيرة ليلى في المغرب، فإن فرنسا لم تخرج هي الأخرى من المرسى الكبير بوهران إلا في فيفري 1968 بعد احتفاظها بالقاعدة البحرية العسكرية آنذاك في إطار اتفاقيات إيفيان وذلك لضمان عدم وقوعها تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي في سياق الحرب الباردة، وأيضا لأن جزءا كبيرا منها مبني داخل جبال صخرية تحوي بداخلها طرقا ومباني ومخازن ضخمة لتكون عصية الاختراق على أي هجوم نووي محتمل.

لكن تطور القدرات التدميرية للقنابل النووية مع الوقت أفقد المرسى الكبير أهميته الاستراتيجية لفرنسا خاصة وأن مصاريفها كانت مكلفة فتم نقلها إلى سيطرة القوات الجزائرية قبل الموعد المتفق عليه، لتكون رسميا آخر مكان غادره جندي فرنسي بعد أكثر من قرن من الاحتلال.

الإقليم الوهراني إبّان الوجود الفرنسي كان من أغنى الأقاليم في الجزائر قبل ظهور آبار النفط في الجنوب، وكانت المنتوجات الزراعية في المنطقة الوهرانية ذات جودة عالية ومصنفة عالميا من «زيتون» سيق إلى «طومسون» باريقو إلى «كليمونتين» مسرغين إلى «عنب» معسكر دون الحديث عن أفخم أصناف الكروم التي كانت تنتج أجود أنواع الخمور والتي جعلت من وهران بداية الستينيات واحدة من أكبر عشر مدن فرنسية وأول مدينة أوروبية في الجزائر، ولعل ذلك ما يفسر أيضا النشاط الكبير لمنظمة الجيش السري الإرهابية بوهران بين شهر مارس وجوان 1962 والتي ترجمت بوضوح عدم قبول الأوروبيين التخلي عن وجود تعود جذوره إلى بدايات القرن السادس عشر، ولو أنها وقّعت في نفس الوقت شهادة وفاة أي تعايش سلمي بين الجزائريين المسلمين والجزائريين من أصل أوروبي بعد الاستقلال جراء الأحداث الدموية التي تسببت فيها هذه المنظمة والتي امتدت حتى للتراب الفرنسي (ولو أنها لم تساهم في النهاية إلا في زيادة شهرة سيارة الدياص بالاص لسيتروان بعد فشل محاولة اغتيال ديغول على متنها).

وهران تعشق أصوات الموسيقى وتحب زرقة البحر وتغرق في أشعة الشمس وتستأنس بأضواء الليل طيلة فترة لا بأس بها من السنة. يتنزه الناس في شوارعها وحدائقها في أي وقت من اليوم، ويفتخرون بجولتهم المفضلة التي يتمشون فيها فوق ممر واجهة البحر الذي تزينه النخيل، ويطلون من هناك على الميناء التجاري والبحر المتوسط.

من المعقول أن يتطلع سكان الموانئ والسواحل دوما إلى ضفاف أخرى غير تلك التي يطلون عليها يوميا، وقد تكون تلك الضفاف الشمالية من هذا البحر قريبة من مخيلة الناس ووجدانهم لدرجة أن بعضهم يتصور أنه يمكن أن يرى من وهران أضواء إسبانيا إن صعد فوق سطح عمارة شاهقة بعد غروب الشمس وكان الجو صافيا.

لذلك يحتل هذا البلد هنا بعيدا عن حكايات الريال والبارصا والليغا مكانة خاصة في النفوس يصعب فهمها دون أن تعيش في مدينة الباهية .فإلى وقت قريب في الثمانينيات وقبل غزو الهوائيات المقعرة كان السكان يلتقطون القنوات التلفزية الإسبانية ويشاهد الأطفال الرسوم المتحركة باللغة الإسبانية. القنوات الإذاعية إلى يومنا هذا أوضح في راديو السيارة من قنوات الإذاعات المحلية وكان من المتاح قضاء عطلات عائلية صيفية في الضفة المقابلة كل ذلك يضاف إلى أسباب أخرى لا يتسع المجال لذكرها جميعا هنا، تجعل أقرب مدينة إلى الباهية في الضفة المقابلة مثلا هي أليكانتي، التي

تعيش بها أعداد كبيرة من الجزائريين والذين تضاعفت أعدادهم هناك أيام الأزمة المالية الإسبانية وانهيار أسعار العقارات، ليبلغوا أكثر من عشرين ألف مهاجر، وهو ثلث عدد الجالية المقيمة في إسبانيا (بصفة قانونية طبعا).

سبق لي أن مررت بإسبانيا في رحلة خاطفة قبل خمس سنوات ولم تنضج في رأسي فكرة أن أزورها مرة ثانية إلا بعد أن اقتربت منها جغرافيا باستقراري في وهران واقتربت مني وجدانيا عبر عديد الكتب التي أصبحت أجد متسعا من الوقت لمطالعتها هنا، والمتعلقة بتاريخ الفردوس المفقود كما تسميه أدبياتنا. لذلك قررت أن أسافر لزيارة بلد نشترك معه في تاريخ طويل ربما كان برائحة الدماء والبارود أحيانا، لكنه جدير بالزيارة على الأقل من الناحية السياحية وهو الغرض من السفر في النهاية.

تنطلق البواخر نحو إسبانيا من ميناء مستغانم نحو برشلونة وبلنسية، ومن ميناء وهران نحو أليكانتي وألمرية، ومن الغزوات اتجاه ألمرية فقط. لمدة أسابيع وعبر الانترنيت المتدفقة بسرعة سيارة في زحام العاصمة، بدأت في تخطيط مسار رحلتي في ذلك البلد السياحي والتي اخترت أن تكون في شهر سبتمبر حيث الحرارة لا هي بالمرتفعة الشاقة ولا بالمنخفضة الباردة، وأين يكون الانطلاق من وهران إلى ألمرية ثم العودة إليها بعد عشرة أيام أو يزيد..

ما الذي رأيته واكتشفته وعشته في أطوار هذه الرحلة القصيرة؟

كيف تسافر إلى بلد توقفت معرفتنا به مع آخر زفرة أطلقها عبد الله الصغير وهو يغادر ملكه؟ ولماذا يعلمك ركوب البحر نحو الشمال أن قصر الحمراء أقرب إليك مسافة من مقام الشهيد انطلاقا من وهران؟ حكاية لن يأخذ منك هذا الكتاب أكثر من جلسة واحدة، في حافلة أو قطار، في حديقة أو في مطار، في مركز للبريد أو في قاعة انتظار، في مكتبة أو حتى في وسط الدار، لمطالعة ما جاء عبر صفحاته والسفر إلى جنوب إسبانيا دون تأشيرة لكن بتذكرة ذهاب وعودة.

وتنطلق السفينة..

Rester,c’est exister.voyager ,c’est vivre

يعتبر جواز السفر الجزائري من أضعف الجوازات في العالم ولكنه ليس الأسوء، فهو يأتي في المرتبة الثمانين عالميا وهو أفضل من جوازات مصر والأردن ولبنان وسوريا والسودان شماله وجنوبه ودولة الصومال (علما أن التصنيف سنوي ويمكن أن يتقدم ويتأخر).

أكثر من ستين دولة في العالم لا تعترف بجواز بلدنا كوثيقة وحيدة للسفر، وما عدا بعض الدول الإفريقية والدول الصغيرة في أمريكا اللاتينية ودول أذربيجان وجورجيا وأرمينيا وألبانيا في أوروبا التي ربما تغازلنا بخفة الإجراءات طمعا لتنشيط مواسمها السياحية، فإن باقي الدول تفرض على الجزائريين الراغبين في السفر إليها ماراطونا طويلا وحملا ثقيلا من الوثائق التي ربما تسمع بوجودها لأول مرة، وزمنا مخيفا من الترقب والانتظار. بل إن الترقب سيسافر معك إلى غاية وصولك عند شرطي الحدود في الدولة الأوروبية التي حصلت

على تأشيرتها، فربما أعادك من حيث أتيت لسبب أو لآخر. وطبعا لن أتحدث هنا عن دول أوقيانوسيا التي تعترف بجوازنا الأخضر لأن معظمنا لا يعرف وجودها على الخريطة من الأساس لصغر حجمها، كجزر بالاوس وكوك وساموا ونيو وتيفالو وميكرونيزيا (هذه الأخيرة تعني أصلا باللغة الإغريقية الجزر المتناهية الصغر).

في فصل الصيف كانت باخرة ترانسميديتيرانيا تبحر من ميناء وهران ليلا بمعدل مرتين إلى ثلاث أسبوعيا وذلك ما شجعني على اختيار ألمرية كوجهة أولى في رحلتي. عرفت بعد استفسار هاتفي أنه بداية من شهر سبتمبر ينخفض ضغط المسافرين على هذا الخط البحري وينخفض بالتالي مبلغ التذكرة (ليس هذا صالحا مع شركات النقل الوطنية والفنادق بمختلف نجومها وأنواعها التي لا تعترف أسعارها بالفصول والنواميس الكونية للعرض والطلب) وهكذا اقتنيت تذكرة بأربعة عشر ألف دينار جزائري، حيث تكون المغادرة في الحادي عشر سبتمبر والعودة يوم الثالث والعشرين منه، وكنت قبلها قد قصدت وكالة سياحية متعاقدة مع المؤسسة التي أشتغل بها كي أحجز بعض الليالي في فنادق صغيرة من نجمة أو نجمتين عبر مدن إقليم الأندلس المعروفة (وذلك قبل عطلتي بشهرين كاملين) تبدأ بألمرية وتنتهي بمالقة مرورا بغرناطة وقرطبة وإشبيلية ورندة..

وكالات السفر تملك قاعدة بيانات فيها عدد كبير من الفنادق عبر العالم ويمكنها أن تحجز لك في أي فندق تريده وفي التواريخ التي

تحددها سلفا. إذ ما عليك إلا أن تختار وقتا معينا من السنة يكون فيه الإقبال ضعيفا وتقوم باختياراتك وستجد أسعارا مذهلة ستنسيك في أسعار تركيا والمغرب وتونس ومصر شرط أن تحجز بشكل مسبق (وهذا صعب أحيانا لأن التخطيط لساعة موالية في بلدنا صعب جدا، فما بالك بالتخطيط لأشهر مقبلة؟!)

مع أسعار الصرف الملتهبة حاليا ومستقبلا كما يبدو.. يكون من الأحسن أن تقوم بحجوزاتك بالدينار الجزائري وتحصل على وصولات تأكيد الحجز من الوكالات هنا ثم تستعمل اليورو الذي تأخذه معك لدفع مصاريف الأكل والتنقل وشراء المقتنيات المختلفة في أوروبا.

اختار لي الشاب في الوكالة السياحية التي قصدتها فندقا وسط مدينة ألمرية على اعتبار أنها مدينة الوصول ولا بد من قضاء يوم كامل بها قبل الانطلاق إلى باقي المدن ومنحني في نفس اليوم وصولات تأكيد الحجز (vouchers) عبر فنادق المدن الخمس التي سأزورها فيما بعد.

لم أكن أعرف عن ألمرية أكثر من كونها المدينة أو المنطقة الأولى في العالم التي تضم أكبر عدد من البيوت البلاستيكية الزراعية، وقد اكتشفت ذلك من خلال سلسلة وثائقية جميلة (بتقنية التصوير الجوي) تتحدث عن سواحل دول أوروبا ومكوناتها الطبيعية ومعالم المدن المطلة عليها. كنت أيضا قد بدأت في تعلم بعض الكلمات والتراكيب الإسبانية من خلال تطبيق على الأندرويد أنصح به القراء

اسمه «DUOLINGO» ويمكن من خلاله تعلم لغات أخرى أيضا.

اكتشفت مع مرور الوقت والتعود على التعلم عبر الهاتف الذكي أن الإسبانية ليست صعبة لمن يعرف الفرنسية بشكل مقبول ثم إنك ستشعر بالإثارة والدهشة وأنت تكتشف أن الأرزّ والسكر والزيت والزعفران واللوبيا والبركة والقبة والقصر والقلعة والقميص والصباط كلها كلمات مشتركة بيننا وسيفهمك الإسبان لو نطقت بها هناك بالعربية دون أدنى مشكلة.

بعدها قصدت وكالة سياحية في وهران وحجزت في واحد من بيوت الشباب في مدينة ملقا التي ستكون آخر مدينة في برنامج الرحلة وكانت الليلة بـ: 4000 آلاف دينار.

الحجز في مرقد بأوروبا، يعني أنك ستقتسم غرفتك مع مجموعة من الشباب ولكن ذلك لم يكن يهمني كثيرا فأنا لا أتذكر حتى لون طلاء الغرفة التي نزلت فيها ببرشلونة المرة السابقة لأن السائح الجزائري عادة لا يحتاج من الفندق إلا مكانا للنوم ليلا.

صباح العاشر من سبتمبر 2017 بدأت بترتيب أغراضي في حقيبة الظهر الكبيرة التي لم أستعملها من قبل رغم أنني اقتنيتها منذ ثلاث سنوات. كنت أغار من صور المسافرين على النت وهم يحملون حقائبهم ويتجولون في كل أنحاء العالم فرحين كالأطفال الذين يكتشفون ألعابا جديدة. وها قد حان الوقت كي أسافر أنا كذلك كما

يفعلون وأقوم بتصوير ما أندهش لرؤيته كما يصورون، وأروي تجربتي الصغيرة عبر الكتابة كما يروون، خاصة وأننا في قرن شعاره الاقتسام والمشاركة و«البارطاج».

الإبحار من وهران كما كتب في التذكرة سيكون في منتصف الليل وقد كنت هناك على الساعة السابعة مساءً بعد أن أوصلني زميلي في العمل إلى الميناء. في المدخل انتصبت شرطية عند إحدى الطاولات لتفتيش الأمتعة وكان مجموعة من الأشخاص يقفون في طابور قبلي وكلهم يحملون حقائب وأكياس فارغة، ولا يبدو من مظهرهم أنهم يقصدون الضفة الأخرى للسياحة، فهم من تجار الحقائب الذين يسافرون أكثر من مرة شهريا لاقتناء بعض السلع من هناك، أغلبها خردوات وأشياء مستعملة لتعظيم هوامش ربحهم في كل سلعة. اقترب دوري وكان الشخص الذي قبلي يجادل الشرطية حول خراطيش التبغ التي في حقيبته فقد كان يحمل معه ثلاث خراطيش وقد طلبت منه الشرطية أن يتخلص من الثالثة بأي طريقة قبل أن تسمح له بالدخول.

«صدّقها أو بيعها.. والله ما تدّيها معاك..» هكذا صرخت في وجهه الشرطية قبل أن ينسحب ذلك الشخص مستسلما نحو مقهى مقابل. يقول القانون إن من حقك أن تأخذ معك خرطوشتين للاستعمال الشخصي، لكن معظم المسافرين يحملون معهم علب التبغ لإعادة بيعها هناك فأسعار التبغ في أوروبا مرتفعة بفعل

الضرائب المفروضة على هذا المنتج واسع الاستهلاك.

دخلت الميناء ومررت ثانية عبر سكانير للشرطة ولكنهم لم يفتشوني، وتوجهت إلى وكالة ترانسميديتيرانيا للحصول على بطاقة الركوب، وبعدها ارتميت على كرسي في قاعة الانتظار وكلمة الانتظار في مطاراتنا وموانئنا لا زالت تحتفظ لسوء الحظ بكل معانيها وتجلياتها الطويلة والمملّة.

ميناء وهران على ضخامته لا يملك إلا رصيفا واحدا لمغادرة بواخر المسافرين (في انتظار استكمال بناء الرصيف الثاني) والمشكلة أن باخرة طارق بن زياد كانت متواجدة هناك للتوجه إلى أليكانتي، مما يعني أن باخرتنا لن تدخل الرصيف حتى تغادر باخرة طارق. هذه الأخيرة لم تحترم موعد الوصول وطبعا لن تحترم موعد المغادرة وذلك سيكون على حسابنا.

سبعة ساعات كاملة قضيتها في الانتظار قبل الركوب على متن السفينة، لذلك يقول لي بعض الأصدقاء المتعودين على السفر، إن سفرك لن يبدأ إلا حين تحط رجليك في الوجهة الأخرى ومادمت هنا فما عليك إلا بالتحلّي بالصبر وطول النفس.

كنت قد قمت بتحميل بعض الكتب باللغتين عن إسبانيا أطالعها في هاتفي لأخفف عن نفسي مشقة الانتظار، القاعة كانت فسيحة بعض الشيء، تحتوي على كل الضروريات من مصلى وكافيتيريا

وبيت للراحة، كما علقت في جدرانها صور قديمة لمدينة وهران في الحقبة الاستعمارية والتي لن تعطيك حتما أي فكرة عن شكل المدينة الحالي. من المعروف وطنيا أن صور مدننا وبلداتنا الحالية أكثر أناقة وترتيبا وانسجاما حين تكون بالأبيض والأسود لكن ذلك موضوع آخر.

قبل منتصف الليل بساعة انتقلنا إلى قاعة الركوب وتم ختم جوازاتنا ومراقبة أمتعتنا من طرف الجمارك. سألني الجمركي عن اليورو فقلت له عندي: قيمة المنحة السياحية فقط. لم يعلق على الأمر وتمنى لي عطلة طيبة.

المحنة السياحية الجزائرية (لأنها لا ترقى إلى مستوى المنحة) تعتبر من بين أخفض المنح السياحية عالميا للأسف الشديد ويبدو أن الجمركي يعرف أيضا أنه من العبث أن يسألني إن كنت أحمل معي المزيد من العملة الصعبة لأن جميع من يسافر خارج البلد مضطر لحمل الأوراق النقدية معه، فمنظومتنا البنكية متخلفة وبالية، ثم إن الجمركي نفسه حين يود السفر يقتني الصرف من السوق السوداء بالأسعار التي نعرفها جميعا. فلا داعي إذن لضحك المسلوخة على المذبوحة.

ركبنا الباخرة بعد منتصف الليل وهي باخرة متوسطة الحجم مقارنة بمثيلاتها التابعة للشركة الوطنية للنقل البحري، الطاقم كان من جنسيات مختلفة والمضيفون كانوا مغاربة بالأساس. جلست في قاعة اصطفت فيها الكراسي ووضعت أغراضي بالقرب مني. كنت

أشاهد من النافذة الزجاجية الكبيرة أضواء الميناء ومباني وهران ولا أدري لماذا انتابني شعور مُدغدغ بأنها أضواء لمدينة أخرى غير تلك التي أعيش فيها. أتساءل دائما عن السرّ في تبدّل إحساس المسافر اتجاه الأشخاص والأماكن حين يهم بمغادرتها، فيصبح مسالما ودودا متسامحا عطوفا ومتأملا نحوها كما لم يكن من قبل.

كانت بعض البواخر التجارية تغادر الميناء ليلا لتذهب إلى بحار ومحيطات وسواحل وجزر أخرى. كنت أرى تلك البواخر من النافذة ومرة أخرى رحت أفكر وأتأمل في أننا نطلّ على عالم أكبر وأوسع من خلال هذا البحر الذي منحه الله لنا بابا نحو آفاق جغرافية مغايرة، لكننا تصورناه بابا صليبيا لا يدخل منه إلا الغزاة والمحتلّون في الماضي، ولا تزورنا عبره في الحاضر إلا بواخر حديدية بكماء صمآّء بشعة، بألوان باردة قاسية يسكنها فيليبينيون وأجناس لا يتكلمون لغتنا، يفرغون سلعا ويغادرون بسرعة، قبل أن تتوجه تلك السلع لتقع في براثن استهلاكنا الأبله الذي يبتلع ما أفرغته بطون تلك السفن في بلادنا، دون حتى أن نفكر في التنقل ذات يوم إلى هذه الأمكنة التي تنطلق منها تلك المنتوجات لنرى ونكتشف كيف يستطيع الناس هناك إنتاج كل تلك الخيرات.

حتى شعار دولتنا الجزائرية وقد نبهني إلى ذلك أحد الضباط المتقاعدين من سلاح البحرية ذات يوم، لا يحوي على أي إشارة للبحر أو الساحل مع أنه يعج برموز أخرى تمثل كل واحدة منها بعدا من أبعاد

الدولة (الشمس المشرقة من وراء الجبال، السنابل، سعفة النخل، المصنع، الحمامة التي تحمل غصن الزيتون، صندوق الاقتراع...)

عند الثانية والنصف صباحا دارت محركات الباخرة بقوة، وبدأت تتحرك بنا لتخرج من حوض الميناء الضيق إلى رحابة البحر المتوسط، الذي على شساعته أمام أعيننا ووعينا، لا يشكل إلا واحد في المئة من رحابة بحار الكوكب الأزرق. وبينما بدأت السفينة في الإبحار أخيرا نحو الوجهة، كنت أغالب الأرق بحثا عن نعاس لا يكاد يقترب من جفوني حتى يغادرها، كموج يزحف على الشاطئ ثم ينسحب سريعا.

التكييف داخل الباخرة كان عاليا جدا وكأننا في غرفة تبريد للحوم، والمتعودون على السفر جاؤوا معهم بأفرشة وأغطية ودخلوا في نوم وشخير عميقين. رحت أتجول قليلا في السفينة وقد كان الصمت يلف المكان، صعدت إلى السطح لألقي نظرة على البحر وبقيت أتأمل قليلا في السواد المحيط بي حيث لا ضوء في الأفق ولا إضاءة في الأعلى عدا تلك التي تتكرم بها النجوم المتوهجة في سماء ليلة صيفية صافية.

حين أشرقت شمس صباح اليوم الموالي (وما أجمل أن تشاهد شروق الشمس وسط البحر) عادت الحركة إلى أرجاء السفينة وانشغل كل مسافر بالحديث للثاني، أو التنقل من مكان لآخر أو تناول الافطار أو مشاهدة التلفزيون في الكافيتيريا. وبدأت أرى من حولي أطفالا صغارا يقفزون من مكان لآخر ويتكلمون الإسبانية بطلاقة

مع أنهم جزائريون. زاد ذلك من حسرتي على عدم تعلم هذه اللغة فيما مضى..

مرّ الوقت سريعا صباح الإثنين الحادي عشر من سبتمبر 2017، وكنت فوق الجسر (المصطلح الذي يطلق على سطح الباخرة) أرقب منظر الزبد الأبيض الكثيف الذي يتشكل في مؤخرة السفينة، وهو يشبه منظر طريق معبد يزداد اتساعا كلما تقدمت بنا نحو وجهتنا قبل أن يتلاشى بسرعة تحت أمواج كثيرا ما التهمت أجساد شباب كانوا يسترشدون في عرض البحر بما تتركه حركة سفن المسافرين مثل هذه، قبل ظهور أجهزة تحديد المواقع.

قبل ساعتين من منتصف النهار تراءت لنا في الأفق جبال شبه الجزيرة الإيبيرية، جبال جرداء لا تختلف عن جبال الأطلس الصحراوي عندنا، فجنوب إسبانيا من الناحية الجيولوجية صفيحة تكتونية مرتبطة بإفريقيا ومن الناحية التاريخية صفحة مشتركة مع سكان شمال إفريقيا اسمها الأندلس.. ومن الناحية الزمنية وجهة سياحية مثيرة، لم تعد تفصلني عن الوصول إليها إلا ساعة ونصف من الزمن..

ألمرية محطة وصول وانطلاق

Qui prend garde à chaque nuage ne fait jamais voyage

في العادة حين يسافر المرء إلى دولة ما وقد حضّر سفره من قبل وقام بحجوزات الفندق ووثيقة التأمين ومعه جواز سفر ساري المفعول وتأشيرة شنغن صالحة، ويحمل معه ما تيسر من أوراق العملة الصعبة (والتي تحولت مؤخرا إلى مستحيلة) فإنه سيفكر فقط في كيفية قضاء عطلته وما هي المواقع الطبيعية والأثرية التي سيزورها ويأخذ فيها صورا وسيلفات للذكرى وإغاظة الأصدقاء على الفيسبوك، وربما اتسع وقته لمراجعة بعض الكلمات والتعابير الأساسية بلغة الدولة التي سيزورها والتي سيحتاجها في تعاملاته اليومية طيلة فترة العطلة.

لكن الجزائري منا يظل فكره منشغلا ومعلقا بذلك الشباك الصغير الذي يفصل بينه وبين أوروبا، ذلك الحيز الضيق من المكان الذي

يقبع بداخله شرطي حدود يستطيع أن يختم جوازك لتمرّ إلى العالم خارج وطنك وخارج حدود نفسك (التي ضاقت بك وضقت بها تحت سماء بلدك) كما يستطيع أن يفسد كل مخططاتك (وكم هي مكلفة خططنا التي تمتد أحيانا من مغافلة المسؤول في العمل إلى باقي المحيطين من أصدقاء وأقرباء للحصول على عطلة بعيدة عن فضول الأعين وثرثرة الألسنة) ويرفض مرورك فتنتهي قصة عطلتك وسفرك قبل أن تبدأ.

حين اقتربت الباخرة من دخول ميناء ألمرية كنت أشاهد من وراء النافذة شاطئ المدينة وبعض العمارات والفنادق التي تطل على البحر. في شهر سبتمبر وتحت حرارة تقارب الثلاثين درجة، لا تزال هذه المدينة الساحلية مستلقية في كسل تحت أشعة الشمس لينعم السياح فيها بالراحة والهدوء.

بعد الساعات السبع التي قضيتها في ميناء وهران ليلة البارحة والتعب الذي نال من جسدي جراء ذلك، كنت مستعدا بكل أريحية لجولة وماراطون جديد في هذا الميناء، لكن الأمر لم يكن تماما كما توقعت.

رست السفينة أمام الرصيف وتجمعنا أمام الباب للخروج، بسرعة تم فتح الباب ومررنا عبر ممر طويل للراجلين يقودنا مباشرة إلى مبنى صغير في الميناء، كنت رابع شخص يخرج من السفينة، ووقفنا قبالة شباكين لشرطة الحدود في قاعة مرتبة وهادئة ومليئة

باللافتات المكتوبة حتى باللغة العربية لتسهيل المهمة على الأعوان والمسافرين، مع ملاحظة أن عدد الأعوان هنا وأصحاب البزّة الأمنية قليل جدا.

في الطابور كنت أشاهد من خلال الزجاج شارعا في الخارج وبعض الناس التي تتجول خلاله، وربما هذا ما يجعلني أفضل البواخر على الطائرات التي تحط بك في أمكنة بعيدة عن وجهتك النهائية نسبيا بينما الموانئ الأوروبية تقع على بعد أمتار من وسط المدينة ثم إن هناك فرقا محسوسا بين وسيلة السفر التي تمكنك من الوصول إلى الأمكنة فقط والوسيلة التي تمكنك من رؤيتها ومباشرتها بذوق وتأني.

وصل دوري فوقفت أمام الشرطي وناولته جواز السفر (كانت لدي تأشيرة شنغن فرنسية تمتد صلاحيتها لأكثر من سنة) وضع الشرطي الجواز في آلة صغيرة أمامه ثم طبعه وأرجعه لي (لا أتذكر أنه نظر في وجهي) كنت قد وضعت وثيقة تأمين السفر وبيانات حجوزات الفنادق في قفتي الصغيرة لاستظهارها عند الطلب لكن لا شيء من ذلك حدث، تقدمت ناحية الجمركي الذي كان ينتظرني على بعد ثلاثة أمتار بعد شباك شرطي الحدود، وضعت كامل متاعي في جهاز السكانير ثم حملته مره أخرى بعد عبوره إلى الجهة الأخرى، وواصلت طريقي نحو باب الخروج من القاعة لأجد نفسي تقريبا وسط المدينة، فليس يفصل الميناء عن ألمرية سوى سور قصير مزين ببعض النباتات المتسلقة، ولا وجود لذلك القدر من الأسوار والحواجز الحديدية

والأسلاك الشائكة والخزانات الصدئة والروائح والأغبرة والأدخنة التي تميز مشاهد موانئنا التي كأنها تحتل مدننا احتلالا، بدل أن تكون امتدادا منسجما معها ولها نحو ساحل البحر المتوسط الذي نطل عليه في لامبالاة مطلقة.

تمشيت وسط مدينة ألمرية التي تطأها قدماي لأول مرة، ومباشرة وجدت نفسي عند بداية شارع طويل وواسع يخترق المدينة من الجنوب إلى الشمال تتوسطه مساحة مبلطة ومزينة طويلة اصطفت فيها أشجار النخيل والورود والنباتات ويسير فيها الناس راجلين أو على متن الدراجات في ممرات خاصة، وعلى جانبي هذه المساحة المهيأة امتد طريقان للسيارات بشكل متواز.

أخذت صورة تذكارية أمام أول معلم قابلني وهو عبارة عن أحرف لاتينية في حجمي وطول قامتي (متر وخمسة وسبعون) وضعت وسط المدينة مشكّلة كلمة ALMERIA وبجانبها حبة طماطم حمراء مصنوعة من البلاستيك. فمدينة ألمرية تحديدا وإقليم الأندلس عامة هو المزرعة التي تغذي إسبانيا بأكملها وجزءا كبيرا من أوروبا وسأرجع إلى ذلك فيما بعد.

استعنت بقوقل ماب على هاتفي النقال للتوجه إلى فندق LA PERLA وهو فندق صغير متواجد وسط المدينة وصلته بعد نصف ساعة من المشي المتأنّي. كنت أحمل حقيبة ظهر كبيرة وضعت فيها أهم الأمتعة وحقيبة ظهر أصغر حجما خبّأت فيها ما أحتاجه من أمور

خفيفة (علقتها على كتفي لكن ناحية البطن) وأمسك قفتي الصغيرة بيميني التي أضع فيها آله التصوير وقارورة الماء والكناش الذي أدون فيه ملاحظاتي وأفكاري. التمشي في مكان لا تعرفه من قبل يجعلك تتحرك بنشاط وشغف وفضول.

وصلت الفندق واستقبلتني موظفة الاستقبال، أعطيتها جواز السفر وبيان حجز الغرفة، فقالت لي إن جواز السفر لوحده يكفي وقامت بسرعة بتسجيل معلوماتي على كمبيوترها، ثم ناولتني ورقة صغيرة لأقوم بإمضاءها، وفي الورقة رقم الغرفة والقانون الداخلي للفندق ورمز الويفي، كما أعطتني بطاقة مغناطيسية لفتح الغرفة وتمنت لي إقامة مريحة.

دخلت غرفتي الصغيرة في الفندق، كانت ضيقة نوعا ما لكني لا أحتاج لأكثر من سرير وحمام ومساحة صغيرة للصلاة، وكل ذلك كان متوفرا وأكثر. بعد نصف ساعة نزلت إلى قاعة استقبال الفندق، حيث زودتني الموظفة بخريطة للمدينة وفيها أهم المعالم التي تستحق الزيارة، وعلى ظهر الخريطة جدول مفصل بأسماء المواقع ومواقيت زيارتها وأرقام الهواتف للاتصال والحجز. من خلال قراءة سريعة لجدول المواقع تبين لي أنني اخترت يوما غير مناسب للوصول، على اعتبار أن جلّ المتاحف والأبنية الأثرية مغلقة يوم الاثنين لأنها تشتغل يومي العطلة الأسبوعية (السبت والأحد) فاكتفيت بجولة مشيا على الأقدام في أرجاء المدينة.

الحرارة في الشارع كانت مرتفعة لكنها في نفس الوقت لطيفة محتملة، أبنية وسط المدينة جميلة ومنسجمة والأرصفة نظيفة، الحركة كانت بطيئة نوعا ما والسبب أن الإسبان يعشقون ممارسة القيلولة، وهم يتجولون عند حلول المساء، خاصة في هذا الوقت من السنة أين يكون النهار طويلا، والهواء عند حلول الظلام منعشا.

أول ما لا حظته أثناء جولتي أن الأضواء تنظم حركة مرور السيارات والراجلين في كل شوارع المدينة، فالسيارات تقف عند الضوء الأحمر حتى لو خلا الطريق من المارة، والراجلون يقفون عند ضوء المرور حتى لو خلت الطريق من السيارات، ثم إن الرصيف ليس ملكا للراجلين فقط ولا الطريق خاص تحديدا بالسيارات، إذ أن هناك ممرات ملونة بالاحمر الأرجواني مخصصة لأصحاب الدراجات الذين يتنقلون بدراجاتهم دون فوضى في السير والتعدي على حقوق الراجل أو صاحب السيارة.

لم يمضي على مغادرتي للبلد أربع وعشرون ساعة، لكني فهمت بسرعة هنا أنك كإنسان تساوي قيمة معتبرة في الفضاء العمومي وأن كل ما في الشارع موجود حقا لحمايتك وحفظ حقوقك وتسهيل فترة تجوالك. الأضواء للتنظيم واللافتات للإرشاد (مكتوبة أساسا بالإسبانية) والمساحات الخضراء للراحة والشرطة لإشعارك بالأمن والاطمئنان لا لزرع أحاسيس الخوف والتوجس.

توجهت إلى محطة الحافلات بالمدينة (وهي تقع بجانب الميناء

ومحطة القطارات أيضا) لشراء تذكرة للذهاب في اليوم الموالي إلى مدينة غرناطة. بداخل المحطة وجدت شباكا كبيرا مغطى بالزجاج، وامرأة تجلس بالداخل وطابورا صغيرا، فسألت عن حافلات غرناطة وتم توجيهي إلى ما يشبه الصرافة الآلية ويبدو أن التكنولوجيا هنا قد قلصت عدد العمال بشكل ملحوظ. اخترت اللغة الفرنسية وكتبت وجهة السفر على الشاشة، ثم انتقلت إلى صفحة اختيار توقيت الانطلاق وقد كانت هناك حافلة تنطلق إلى غرناطة كل ساعتين فاخترت حافلة الواحدة بعد الزوال من اليوم الموالي ووضعت ورقة من فئة عشرين يورو داخل الآلة لأحصل على التذكرة والفكة (ثمن التذكرة 14 يورو).

الجميل في الأمر أن الشاشة تعرض أمامك موعد الانطلاق وموعد الوصول بالتحديد وهكذا يمكنك برمجة أمورك بشكل مسبق ومرتب دون مفاجئات غير سارة (إلا في الحالات النادرة).

خرجت من محطة الحافلات لألقى نظرة على الشاطئ ثم تمشيت عائدا نحو الفندق، مدينة ألمرية هادئة تماما مع إمكانية سماع صوت عنيف مفاجئ لدراجة نارية تعبر الشارع بأقصى سرعة، لكن سرعان ما يعود الهدوء وتستمر الحركة بكسل ورتابة. لن تسمع هنا صوتا لأبواق السيارات وإن خيّل لك ذلك فهو حتما مما علق بأذنك بميناء وهران، حيث لم تتوقف السيارات هناك عن تشغيل أبواقها وهي تستعد لولوج بطن السفينة.

داخل غرفتي، استلقيت على السرير، وبدأت ابحث في النت عن بعض المعلومات السياحية. كنت قد خططت في اليوم الموالي أن أزور قصبة المدينة (وهي من أكبر القلاع الإسلامية الباقية آثارها في إسبانيا) وأن أستغل الوقت أيضا لزيارة معلم مميز في ألمرية، هو الملجأ الذي تم حفره في ثلاثينيات القرن الماضي تحت المدينة للاختباء من غارات الوطنيين في حربهم الأهلية ضد الجمهوررين والتي دامت ثلاث سنوات 36-1939 وخلّفت مقتل مئات الآلاف من الضحايا.

خرجت في المساء لتناول العشاء في مطعم باكستاني يقدم وجبات حلال غير بعيد عن الفندق (اكتشفته من خلال تطبيق الهاتف) وبعد العشاء تمشيت قليلا في الشارع الرئيسي للمدينة وقد بدأت أفواج السياح والسكان بالخروج للتنزه.

صباح يوم الثلاثاء 12-09-2017 استيقظت باكرا وتوجهت نحو سوق المدينة القديم المغطى بعد أن قرأت عنه في الدليل السياحي للمدينة. لقد كان أشبه بالمتحف من حيث النظافة والاتقان (لا يشترك في شيء مع أسواقنا المغطاة الموروثة عن الوجود الاستعماري إلا في شكل السقف).

في الطابق الأرضي من السوق والذي تنزل إليه بسلالم ميكانيكية، انتشر باعة السمك ينادون على سلعهم، كلّ في مكانه وحيّزه المخصص له. كان منظر الأسماك هناك مغريا جدا حتى وهي

مقسمة إلى قطع صغيرة، والمثير أن لا رائحة قوية أو نتنة في المكان، إلا بمقدار ما يراود الأنف والعين بالشراء وتجربة مذاق أسماك المتوسط اللذيذة.

لم يكن مدخل «ملجأ الحرب الأهلية» يبعد عن الفندق إلا بعشرة أمتار وهو عبارة عن كشك مضاء من الزجاج، وبداخله مجموعة من المقاعد وضعت تحتها حصيات بيضاء في ديكور عصري جذاب. وقفت أمام المدخل على العاشرة إلا عشر دقائق بعد عودتي من السوق لكني لم أجد أحدا فتوجهت ماشيا إلى أحد المعالم الأخرى في المدينة، وهو عبارة عن خزان قديم للمياه بناه المسلمون وتحول اليوم إلى رواق لعرض اللوحات الفنية بعد ترميمه، لكني حين عدت إلى مدخل الملجأ على الساعة العاشرة وخمس دقائق وجدت الستائر مسدلة وأمكنني رؤية أرجل السياح الذين جلسوا على المقاعد فيما يبدو لرؤية فيلم وثائقي قبل النزول تحت الأرض لمباشرة الزيارة ويبدو أن الوقت هنا محترم ومقدس.

في وجود تطبيقات مثل تريب أدفايزر وقوقل ماب ستعرف الكثير من تفاصيل المعالم التي ستزورها وأراء الناس فيها مسبقا، كما يمكنك رؤية فيديوهات وصور عنها ستقتل كل عناصر المفاجأة لديك (وهذا أمر له مزاياه وعيوبه).

عرفت من خلال تصفحي في النت أن الزيارة ستتضمن مشاهدة شريط وثائقي من ثلاثة عشر دقيقة عن قصف ألمرية بالطائرات وبناء

الملجأ تحت الأرض يليها النزول والتجول رفقة مرشد سياحي يتكلم الإسبانية فقط (الكثير من الآراء التي قرأتها عبّرت عن سلبية هذه النقطة).

طرقت الباب فخرج إلي شاب وسيم ودعاني للدخول، أعطيته ثلاث يوروهات وجلست مع بقية الزوار لمشاهدة الفيلم..

ألمرية تاريخ تحت الأرض وتاريخ فوقها

Il voyage plus vite celui qui voyage seul

النفق الموجود تحت مدينة ألمرية يعتبر حقا قطعة من التاريخ مخبأة ومحفوظة بشكل جيد، كما أنه الوحيد من نوعه الذي يمكن زيارته في كامل أوروبا وقد تم ترميمه وفتحه أمام السياح ابتداءً من 2012.

قادنا المرشد الإسباني الشاب عبر سلالم ضيقة هبوطا قبل أن نصل إلى الأسفل، حيث يمتد أمامنا نفق طويل ينتهي بجدار، وبدأنا في التمشي إلى أن وصلنا إلى الجدار بعد سبعين مترا لنجد مدخلا إلى اليسار يقودنا إلى مقطع آخر من النفق.

الجو بالداخل كان رطبا باردا والأضواء خافتة. المرشد الإسباني سألنا إن كنا جميعا نفهم الإسبانية، فأجبته أنني لا أفهم، فقال لي تعال بجانبي وسوف أشرح بالإنجليزية عند كل نقطة نتوقف فيها.

وهكذا رحنا نسير عبر ما يشبه متاهة من الأنفاق، وكان المرشد يتوقف أحيانا أمام لافتة أو مكان ما ليشرح لمجموعة السياح الذين لم يتجاوز عددهم العشرة بعضا من تاريخ هذا الملجأ الذي كان يعج بالناس من كل الأعمار، والذين كانوا يهرعون للاختباء بداخله كلّما دوّت صافرات الإنذار التي كانت تسبق الغارات الجوية ببضع دقائق.

بعد الشّرح كان مرشدنا الشاب يأخذني إلى جواره ليترجم لي ماقاله تواّ بإنجليزية جيدة. وفهمت من كلامه أن هذا الملجأ ساهم في بناءه جميع سكان المدينة بمختلف أعمارهم وأن بعض الأطفال وبما أنهم لا يدركون ربّما حجم الخطر الذي يتهدّدهم كانوا يتسلّون برسم أشكال الطائرات الحربية (التي تقصف مدينتهم) على الحيطان حين يجلسون بجانب أوليائهم (وقد شاهدت بعض تلك الرسومات).

امتدت على طول الممرّ الذي كنا نتمشّى خلاله مصطبتان (واحدة على اليمين وأخرى على اليسار) بحيث يجلس عليها اللاجئون والهاربون من الموت، وكنا نجلس عليها أيضا للاستماع لشروحات المرشد الذي طلب منا أن نخلّد هذه اللحظات وأن لا نحرم أنفسنا من التقاط الصور الفوتوغرافية فيما ذكّرنا بلطف أن تصوير لقطات الفيديو ممنوع.

كان النفق بطول ألف متر تقريبا وفي بعض أجزاءه انتشرت غرف صغيرة، الظاهر أنها كانت أمكنة لتخزين الأغذية والأغطية وقد تحولت الآن إلى غرف مضاءة وضعت فيها بعض التحف التي تعود

لتلك الحقبة، ويمكن للسائح رؤية بعض الأواني وعلب الطعام وحتى بعض ألعاب الأطفال الخشبية التي يبدو أن سكان المدينة تبرعوا بها لعرضها في هذا المعلم التاريخي الذي يجعلك بحق تعيش أجواء تلك الفترة التاريخية والتي كانت عبارة عن مقدمة وصورة مصغّرة لما سيحدث بعدها من حرب مدمرة ابتداء من 1939 والتي ستستمر إلى 1945 وتغير وجه العالم والبشرية (فيما ستبتعد إسبانيا عن الحرب العالمية الثانية وكأنها نالت ما يكفيها من الدّمار المركّز).

في نهاية النفق قادنا المرشد إلى غرفة أوسع قليلا من سابقاتها، وقد انتصبت فيها خزانة أدوية بالية، وسرير طبي، وبعض الآلات الجراحية التي كانت أقرب لأدوات التعذيب منها إلى أدوات العلاج. وهنا دخل المرشد في شرح طويل نسبيا خاصة وأنه كان يستمع أيضا إلى إحدى السائحات التي راحت تتكلم بالإسبانية مع كامل المجموعة قبل أن تغلبها دموعها. عرفت من المرشد فيما بعد أن والدتها رأت النور تحت الأرض في هذا المستشفى الصغير. وأخبرني ونحن نصعد السلم نحو المخرج أنه كثيرا ما يحضر مواقف مثل هذه وأن الآثار النفسية لتلك الحرب لا زالت موجودة إلى اليوم في إسبانيا وستستمرّ.

خرجنا من النفق أخيرا بعد أن قضينا بداخله خمسا وأربعين دقيقة كاملة لم نشعر بها أبدا، وأعجبني كيف يعمل الإسبان على الحفاظ على ذاكرتهم الحية رغم تباين آرائهم إلى يومنا هذا في تلك الحرب

المدمرة التي قسمت المجتمع إلى نصفين متناحرين واستعملت فيها أبشع أنواع القتل والتنكيل وجربت فيها الدول المتناحرة فوق الأراضي الإسبانية كل أنواع الأسلحة التي امتلكوها (بروفة حقيقية تمهيدا للحرب العالمية الثانية).

بالعودة إلى مدينة وهران، فهي الأخرى لديها أوجه شبه مشتركة مع هذا المعلم الذي زرته، أولا لأنها احتضنت الكثير من أنصار الجمهورية الذين فروا إليها من بطش فرانكو نهاية الثلاثينيات (إبّان الحرب الأهلية) وقد كان لذلك تأثيرات ديموغرافية واقتصادية على المدينة بحاجة إلى مزيد من الدراسة والاهتمام، وثانيا لأن وهران أيضا تضم هي الأخرى متاهة حقيقة من الأنفاق تحت شوارعها وأحيائها ومعالمها تشبه جبنة القرويار الفرنسية، منها ما حفره الإسبان ومنها ما حفره العثمانيون ومنها ما حفره الفرنسيون في القرن العشرين اتقاءً لغارات المحور في الحرب العامة الثانية وقد أتيحت لي فرصة زيارة هذه الأخيرة والتجول بداخلها في جولة مثيرة، ولو أن أشد ما أثار استغرابي هناك هو مدى احترام الفرنسيين آنذاك لقوانين جمهوريتهم حتى تحت الأرض، حيث تم تخصيص ملاجئ مبلطة ومسقفة ومجهزة بوسائل الإضاءة والتهوية للمواطنين الأوروبيين، بينما كان ملجأ المواطنين المسلمين (الأنديجان) عبارة عن كهف ضيق وخانق يدخلونه من باب آخر. هذا دون الحديث طبعا عن حالة هذه الأنفاق حاليا والتي لا زال أمام هيئاتنا الثقافية والسياحية عمل كبير قبل أن نصل إلى مرحلة تليق باستقبال أفواج السياح بها.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر إلا الربع حين عدنا إلى سطح الشارع الذي لا يبعد كثيرا عن السوق المركزي لألمرية، وكان أمام مرشدنا الشاب ربع ساعة كي يلتحق سريعا بالمدخل الرئيسي للنفق على بعد كيلومتر كي يقود زيارة أخرى لمجموعة أخرى من السياح تنتظره هناك. أما أنا فبقي أمامي ساعتان وربع قبل الإقلاع نحو مدينة غرناطة في حافلة الواحدة زوالا. وبقي لي في البرنامج أن أزور قصبة ألمرية وهي واحدة من أكبر التحصينات الإسلامية الباقية في أوروبا إن لم تكن أكبرها على الاطلاق.

القصبة تتربع على مساحة 35 ألف متر مربع وتطل بشكل مباشر على مرفأ المدينة، وقد وصلتها بعد عشر دقائق من المشي صعودا ومرورا عبر حي قديم يبدو أنه مستوطن من قبل الغجر حيث أن مبانيه قديمة وبسيطة جدا. قبل الوصول إلى المدخل الرئيسي للقصبة التقطت صورة لتمثال خيران العامري الذي وضعته بلدية ألمرية بمناسبة مرور ألف عام على تأسيس الطائفة التي استقلت بشؤون ألمرية آنذاك بعد سقوط الدولة الأموية.

طبعا حين يكون المرء في عطلة صيفية ويتجول تحت درجة حرارة تلامس عتبة الثلاثين مع كمية رطوبة محسوسة بسبب القرب من البحر، فإنه لن يستحضر حالا كل المعلومات التاريخية التي طالعها قبل زيارة المدينة، لكن من المفيد التذكير أن ألمرية من المدن المحدثة التي استحدثها المسلمون عند فتح الأندلس وأنها لم تكن

موجودة قبل قدومهم، كما أن أصل التسمية قد اختلف فيه المؤرخون بين من يقول أنها من «المرئية» أي التي يمكن رؤيتها من كل الجهات إلى من يقول أن أصلها من «المرايا» والتي كانت تستعمل للإنذار بقدوم خطر طبيعي أو غارة برية أو ظهور سفينة معادية في الأفق. وطبعا كانت هذه الحاضرة رغم جبالها العارية من الأشجار والغطاء النباتي والشبيهة بتضاريس الأغواط أو حتى شبكة وادي ميزاب في صحراء الجزائر، مدينة عامرة وميناء مهما على الساحل الأندلسي حيث تأخر سقوطها النهائي في يد الملكين الكاثولكيين إلى 1487.

عند المدخل وقبل أن تصعد الأدراج لدخول القصبة ستجد كشكا صغيرا، يمكن أن يسألك الشاب العامل بداخله عن جنسيتك، فقط ليعرف إن كان عليك أن تدفع رسم الدخول المقدر بيورو ونصف للسياح من خارج الاتحاد الأوروبي. أما إن كلمته بفرنسية سليمة وقلت إنك فرنسي فإنه يرحب بك بابتسامة وتمنيات حارة بزيارة ممتعة، على اعتبار أن الدخول مجاني لجميع مواطني الاتحاد.

تجولت في أرجاء هذه القصبة التي انتشرت بها بعض النافورات والأشجار واستمتعت بمنظر المدينة في الأسفل والتي تعلوها هذه القصبة بمائة متر كاملة، كما يمكنك من هناك رؤية منظر جميل وملهم للبحر المتوسط والسفن الراسية في الميناء.

كانت الساعة قد قاربت منتصف النهار والنصف حين هبطت من القصبة متجها نحو الفندق لاسترجاع أمتعتي من مكان حفظ الأمتعة

وهو عادة غرفة صغيرة أو مكان مغلق تحت الدرج، يستعمل لحفظ أمتعة النزلاء الذين يخلون غرفهم قبل منتصف النهار ويحتاجون لحفظ أمتعتهم إلى وقت المساء.

تأكدت من سلامة الأمتعة وتحسست تذكرة الحافلة في جيبي ثم انطلقت مشيا نحو محطة حافلات ألمرية وهي لا تبعد كثيرا عن الميناء وملاصقة تماما لمحطة القطارات، ويبدو أن الحال هكذا في جل المدن الأوروبية، وذلك شيء مريح جدا للسائح والمسافر بصفة عامة.

وصلت المحطة ربع ساعة قبل الواحدة ووقفت مع بعض الناس بانتظار السائق الذي ظهر خمس دقائق قبل موعد الانطلاق ليفتح لنا الأبواب وندخل الحافلة للاستلقاء على كراسي مريحة وواسعة.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة تماما حين بدأت الحافلة في التحرك خارج المحطة، الرحلة بين ألمرية وغرناطة ستدوم ثلاث ساعات كاملة مع أن المسافة بينهما لا تتجاوز المائة والسبعين كيلومترا والسبب أن الحافلة ستمر بكل القرى والبلدات التي تقع بين المدينتين. طبعا هناك حافلات تذهب مباشرة إلى غرناطة (ثمن التذكرة المباشرة 17 يورو) لكن السائح الذي يزور شبه الجزيرة الإيبيرية لأول مرة لا يزعجه أن يحتفظ بثلاث يوروهات في جيبه مع إمكانية اكتشاف المزيد من هذه الأراضي التي عبرها أجداده قبل ثلاثة عشر قرنا أو يزيد.

ما إن خرجنا من ألمرية حتى أصبحت المناظر على اليمين والشمال مجرد جبال جرداء ووديان جافة وتلال مقفرة تعطيك إحساسا غريبا أنك تتجه جنوبا في بلدك الأم، مع أنك غادرت شماله منذ ثمان وأربعين ساعة. إنها صحراء تابيرناس القاحلة التي تبعد عن شمال ألمرية بثلاثين كيلومترا والتي تعتبر الصحراء الوحيدة في القارة الأوروبية التي تمتد على مساحة 280 كيلومترا مربعا وهي محمية طبيعية منذ 1989.

من المثير أن تشاهد من خلال نافذة الحافلة التي كانت تسير بسرعة محددة لا تزيد ولا تنقص، منظرا نوستالجيا لإحدى قرى الويستيرن الأمريكية، ففي هذه الربوع ذات المنظر المقفر جرت أطوار تصوير أفلام عالمية مشهورة جدا، كلورنس العربي ومغامرات إنديانا جونز والفيلم الذي يعرفه الجزائريون جميعا للبطل كلينت إيستوورد.

«le bon le brute et le truand»

طبعا لا أحد اليوم يتفرج هذه النوعية من أفلام «الويستيرن سباغيتي» كما تسمى في عالم السينما، ولذلك فكر الإسبان سريعا في وضع واحدة من أكبر محطات الطاقة الشمسية على المستوى الأوروبي في منتصف الطريق إلى غرناطة أين تصل درجات الحرارة إلى أربعين درجة وأين تسطع الشمس بمعدل ثلاثة آلاف ساعة سنويا. فالمهم هو استدرار ما أمكن من الموارد من هذا الموقع الطبيعي، إن لم يكن من أرضه فمن جوّه.

لم تكن المناظر بذلك الجمال الممتع الذي يمنعك من النوم، لكن رؤية تلك المراوح الضخمة أيضا على رؤوس الجبال والتي تجني الطاقة الكهربائية من الرياح ليل ونهارا لتضع إسبانيا في المرتبة الرابعة عالميا في كمية الكهرباء التي يتم توليدها من الرياح وتلبّي الطلب الطاقوي الداخلي بنسبة عشرين المئة، تجعلك مباشرة تفكر في نعم الطبيعة التي يكتنزها بلدنا دون أن ينتفع بها البشر عندنا ولا البشرية في هذا الكوكب، وتقول في نفسك متى وكيف استطاع هؤلاء الذين كانوا في مستوانا بداية الستينيات أن يقطعوا كل هذه الأشواط في غفلة منا ومن الجميع.

نصف ساعة قبل الساعة الخامسة، بدأت التضاريس في التغير شيئا فشيئا لتفسح المجال أمام ظهور غطاء نباتي وأشجار، ثم بعض البيوت المتناثره هنا وهناك لتتجمع البيوت في قرى بأكملها ويظهر على يسارنا ولو على مسافة هائلة سلسلة جبال ضخمة لابد أنها تحمي لؤلؤة لم تنجح كل الحروب والصدامات والفتن والمؤامرات في النيل من جمالها السرمدي، لؤلؤة بحجم مدينة قالت فيها الحكمة الأبدية:

لا يوجد شيء أكثر ألما في الحياة

من أن تكون أعمى في غرناطة..

غرناطة.. أو حين يتّسع المعنى وتضيق العبارة

The world is a book and those who do not travel read only one page

الساعة كانت تشير إلى الخامسة حين اقترب دخولنا لمحطة غرناطة، ومن نافذة الحافلة كنت أتصيد منظر قصر الحمراء، هذا الذي ألهم خيالات البشر وفتن قلوب الناس وجعل السياح من كل حدب وصوب يشدون الرحال لهذا المكان كي يقفوا على آثار نصر كاثوليكي أو بقايا عصر التوهج الإسلامي أو إبداع الانسان الفني المعماري أو الجمال الآسر الطبيعي. لكن تبيّن بعدها أن المحطة البرية بعيدة نسبيا عن وسط المدينة التاريخي وأنه لا بد علي أن أركب حافلة حضرية من أمام المحطة للوصول إلى وجهتي النهائية.

نزلت في محطة الحافلات العصرية بغرناطة والتي كانت تعجّ بعدد كبير من الشباب من مختلف الأعمار، فغرناطة مدينة جامعية كما فهمت من بعض المواقع على الانترنيت والتي تصفحتها على

عجل لتكوين صورة جديدة عن هذه الحاضرة التي لا تزال في مخيلتنا العتيقة غرناطة الحمراء والبيازين والحمامات ونهر حدّرة وزفرة العربي الأخيرة.

أول شيء قمت به هو شراء تذكرة الذهاب إلى قرطبة بعد يومين من الآن، قبل أن أركب أول باص يأخذني إلى وسط المدينة. لم أستطع الجلوس في مقعد الحافلة وبقيت واقفا أمام الزجاج الأمامي بجنب السائق، لا أعرف هل أتذوق ما أراه فقط بعيني فقط، أم أستعين بكاميرا الهاتف كي يشترك معي الآخرون في لحظات السعادة هذه.

كانت الشوارع نظيفة تصطف فيها الأشجار والورود الحمراء، أما واجهات المباني فهي متناسقة وجميلة، المدينة هادئة وسكانها ينعمون باطمئنان باد على الوجوه رغم أنها تعج بأكثر من مائتي ألف نسمة حاليا.

استعنت بتطبيق قوقل لتحديد موقعي وموقع الفندق وتوجهت مباشرة بعد نزولي من الحافلة إلى الفندق الذي كنت قد حجزت به قبل شهرين وهو نزل من نجمتين متواجد في شارع جانبي ضيق وخال من الناس. ربع ساعة كانت كافية كي أحصل على مفتاح الغرفة مع خريطة للمدينة واستحم، لأنزل مباشرة للشارع الرئيسي وسط المدينة وأتوجه إلى ساحة كارمن أين يتواجد مكتب الديوان السياحي لمدينة غرناطة للحصول على تذكرة دخول أجمل وأعظم موقع تاريخي في إسبانيا كلها «قصر الحمراء».

تذاكر الحمراء صداع مزمن للسياح من كل البلدان لسبب بسيط، وهو أن التذاكر مقسمة إلى أصناف عدّة، فمنها من تمكنك من دخول قصبة الحمراء وجنة العريف والحدائق دون إمكانية الدخول لقصور بني نصر (ثمن هذه التذكرة سبعة يورو) وهناك أيضا تذاكر للزيارات الليلية ولكنها غير مغرية بالنسبة لي، على اعتبار أن القصر مهما كانت رومانسية الليل وهدوءه لا يمكن تأمله والاستمتاع برؤية كل مكونات جماله الطبيعية والأثرية إلا تحت ضوء شمس النهار. أما تذكرة الزيارة العامة والتي تمكنك من زيارة كل أقسام الحمراء بما في ذلك قصور سلاطين بني نصر المبهرة، فلا يمكن الحصول عليها إلا عبر الحجز المسبق عبر النت أو بالذهاب المبكّر إلى مدخل الحمراء والانتظار في طابور طويل لعل الحظ يساعفك للحصول عى التذاكر التي تطرح للبيع يوميا في عين المكان وعددها محدود على كل حال.

وبما أن المعاملات المالية عندنا لازالت تسلك الطرق الاجتنابية الترابية المهترأة ولا تريد أن تنتقل إلى الطرق المعبدة السريعة، أين يمكن للمرء أن يقتني تذكرته عبر الانترنيت. فقد اضطررت للذهاب إلى الديوان السياحي لتجريب حظي في اقتناء تذكرة زيارة عامة من هناك والدفع «كاش».

في المكتب وجدت مجموعة مرشدين شباب جالسين أمام الكمبيوتر ويحملون شارات في صدورهم عليها أعلام البلدان التي يتحدثون لغتها (لا وجود لأي علم عربي) وقصدت الشابة التي

كانت تعلق علم فرنسا إلى جانب علم إنجلترا وإسبانيا وسألتها عن كيفية الحصول على تذكرة لزيارة قصر الحمراء بكامله بما في ذلك القصور الإسلامية ونافورة الأسود فأجابتني بما أعرفه سلفا من خلال آراء السياح وخبراتهم التي شاركوها عبر مواقع الانترنيت من أن تلك التذاكر قد نفذت وما عليك إلا النهوض المبكر للتوجه إلى الطابور والانتظار هناك إلى غاية طلوع الشمس وفتح الأبواب.

خرجت من الديوان السياحي شبه محبط محاولا الاحتفاظ بمعنوياتي التي اهتزت نوعا ما، على اعتبار أن زيارة الحمراء دون دخول القصور النصرية كمن يتناول كأسا ساخنا من الشاي لكن دون سكر. ورحت أتمشى صعودا نحو هذا المعلم الذي كثيرا ما قرأنا وسمعنا ورأينا صوره في الكتب التاريخية والمدرسية وأيضا في عالم الانترنيت الواسع.

طبعا، لن ينالك التعب وأنت تتجه مسرع الخطى، إلى مكان كان يمكن أن يبقى مجرد حلم يراودك أو مجرد صورة جميلة انطبعت في ذهنك دون أن تصل إلى إدراكها مشيا على الأقدام والوصول إلى أسوارها لرؤيتها أمامك، تماما كما ترى في باقي أيام السنة مدخل المنزل أو مبنى مقر العمل.

طريق ملتوية وأدراج عالية ومسالك ضيقة عبر منازل صغيرة وجميلة، كانت كلها تؤدي إلى ذلك التاج الأحمر العالي الذي يتربع في شموخ فوق المدينة، تحيط به الأشجار والظلال وتسري وسط كل ذلك نسائم

منعشة تحملها سواقي المياه الجارية، تنسيك حرارة شهر سبتمبر وتعب السفر وكل ما يخطر على بالك أو جسدك من مشقة أو عناء.

عند نهاية الطريق الضيقة صعودا والتي تسلكها بعض السيارات والحافلات الصغيرة لنقل السياح نحو الحمراء، ستصل بك قدماك المنهكتان إلى مكان طبيعي جميل تظللّه أشجار كثيفة متشابكة الأغصان والأوراق لدرجة أنها تحجب أشعة الشمس وتشعرك بالبرودة، هنالك سترى جريان المياه وتستمع إلى خريرها مرفوقا بزقزقة العصافير التي تلحّن هذه الصورة فتحسبها لوحة فنية ناطقة تغمرك براحة نفسية وسعادة غريبة.

لن تحتاج إلى أكثر من خمس دقائق بعدها كي تصل إلى مدخل قصر الحمراء وتكتشف ذلك العدد الهائل من السياح الذي ينتشر في المكان. فالحمراء تستقبل يوميا أكثر من ثمانية آلاف سائح على فترتين (صباحية ومسائية) وهو أكثر المعالم التي يزورها السياح في إسبانيا، حيث يعد ترمومترا حقيقيا لقياس نجاح الموسم السياحي في بلاد الأندلس من عدمه (كترمومتر برج إيفل في فرنسا).

من قصر الحمراء رحت أتتبع الأسوار العظيمة نازلا لأصل إلى حي البيازين (البائسين) في المرتفع المقابل لموقع الحمراء، وهو الحي الذي لازال محتفظا بطابعه المعماري المميز الذي يشعرك بألفة غريبة مع هذه المدينة الساحرة (تم إنشاء الحيّ أصلا لاستقبال المسلمين النازحين من مختلف المناطق الإسبانية التي سقطت

بأيدي المسيحيين في حروب الاسترداد).

يبدو لي أن المرء حين يزور غرناطة إنما يسترجع قطعا من ذاته أو يعود إلى مكان ما نسيه بداخله منذ مدة. إنّ أي عربي يتجول في غرانادا اليوم إنما يؤثث ذاكرته التاريخية التي اختزنت عديد القصص حول الفردوس المفقود، فيرى ويشاهد ويلمس ويستنشق ذلك العبق الذي يجعله منتشيا وهو يتجول في حي البيازين تاركا لرجليه حرية التحليق بدل المشي في أزقة ضيقة تقودك إلى أعلى نقطة في الحي وأجمل إطلالة ممكنة على قصر الحمراء المهيب

شرفة سان نيكولاس هي المكان الذي تُلتقط منه جلّ الصور المشهورة التي نعرفها لقصر الحمراء، حيث تبدو جبال سييرانيفادا في الخلفية. صحيح أن المنظر أجمل بكثير حين تكون تلك الجبال مكسوّة بالثلج في فصل الشتاء والربيع، لكن مشاهدة غروب الشمس من هذه الشرفة (المكتظة بالسياح في هذا الوقت بالذات) سيضعك أمام أجمل منظر يمكن أن تشاهده في غرناطة بل وفي إسبانيا بكاملها.

حين وصلت إلى هذه الشرفة لم أتمكن من أحجز لنفسي مكانا لمشاهده قصر الحمراء بسبب جلوس صف كامل من السياح (جاؤوا من كل دول العالم) على الحافة والذين لم يملّوا من التأمل والتقاط الصور التذكارية الواحدة تلوى الأخرى.

انتشر بالمكان أيضا فنانون وعازفوا القيتارة والرسامون وقارؤوا الكفّ

وكل أنواع المجانين والمبدعين والمعتوهين الذين يرتدون ألبسة غريبة ويملكون تسريحات شعر أغرب وكل واحد منهم يمارس طقسا خاصا جاء به من بلاده البعيدة. كان منهم أحد الشباب الذي أمسك سيالة زرقاء وراح يرسم أهم المعالم الأثرية للمدينة في قطع صغيرة من الأوراق ألصقها في قطعة خشبية وعلقها في جذع شجرة هناك. وقفت أتأمل تلك الرسومات الجميلة فاقترب مني هذا الرسام وناولني ورقة صغيرة رسم عليها قصر الحمراء كما تراه العين من شرفة سان نيكولاس فاعتذرت منه على عدم شراءها وتمنيت له حظا موفقا. لكنه ابتسم وقال لي: إنها مجانية خذها هدية من عندي. سألته حينها عن الهدف من ذلك فقال لي: نحن شباب مبدعون ليس لنا من نصيب في الحياة غير هذه الموهبة، وقد رأيت أن الأغنياء فقط في هذا العالم من يستطيعون شراء اللوحات والتحف فأردت أن أعبر عن معارضتي لهذا الظلم والتناقض برسومات أمنحها مجانا للسياح، فمن حقّ كل الناس أن يتذوقوا الفن ويحتفظوا بقطع منه حتى لو لم يكونوا أغنياء.. الفن ليس شيئا نتملّكه بل أشياء نقتسمها.

التقطت بعض الصور لهذا الشاب برفقة بعض أصدقاءه وشكرته على مبادرته (وعدته بأن أتحدث عن فكرته وها قد فعلت) ثم غادرت الشرفة الصاخبة إلى مكان آخر غير بعيد عنها ويمكن منه أن تشاهد قصر الحمراء في كامل جلاله وجماله، إنها شرفة أخرى قليلة الاكتظاظ وأصغر حجما لكنها أكثر جمالا وتنسيقا، ويمكن فيها أن أجلس متكئا إلى عمود صغير وأن أتأمل الحمراء مباشرة وجزءا من مدينة غرناطة في

الأسفل دون إزعاج وزحام.

لم تكن هذه الشرفة إلا عبارة عن حديقة صغيرة هادئة فيها بعض الشجيرات والورود ونافورة ماء تصدر أصواتا رقيقة، هذه الحديقة بكل بساطة هي الساحة الخارجية لجامع غرناطة..

الأندلس.. الفردوس الموجود

Qui na pas quitté son pays est plein de préjugés

مسجد غرناطة الجامع (هكذا تسميته الرسمية) آية في الروعة والنظافة والتنسيق والترتيب بجدرانه البيضاء وسقفه الأحمر وحديقته التي تتوسطها نافورة جميلة. هذا المسجد الذي أعاد الآذان من جديد إلى سماء المدينة بعد منع دام خمسة قرون كاملة لم يأتي بالسهولة التي يدخل بها السائح المسلم اليوم ليصلي بداخله في كل اطمئنان ويلتقط بعض الصور للذكرى ويتمكن من البقاء بالحديقة للتمتع بمنظر قصر الحمراء المضاء ليلا (فيما يخرج بقية السياح لأن الباب الخارجي يتم غلقه أمام الفضوليين ولا يفتح لغير المصلين بعد صلاة المغرب).

قصة مسجد غرناطة بدأت في نهاية الثمانينيات حين اشترى المسلمون قطعة أرض أرادوا أن يبنوا عليها مسجدا لهم، وقد قضوا سنوات طويلة في معارك قضائية للحصول على ترخيص البناء، ثم

في الحصول على التمويل (بعد أن اشترطت عليهم الدول الإسلامية تسيير المسجد وتعيين الإمام والخطيب ومواضيع خطب الجمعة مقابل التمويل) كما اضطروا لبناء نسخة كاملة عن المسجد في مكان آخر فقط كي يطمئن مجلس المدينة إلى تطابق وانسجام بناءه مع النمط المعماري لحي البيازين، وهنا اضطر المسلمون لتصغير حجم وطول المئذنة ليفتح المسجد أبوابه أخيرا أمام المصلين سنة 2003 ويكون أول مسجد بكامل مكوناته يبنى في غرناطة منذ حروب الاسترداد (هناك مصليات أخرى بالمدينة لكنها عبارة عن مساحة للصلاة ليس إلا).

ساهم الشيخ القاسمي حاكم إمارة الشارقة في بناء المسجد وكذلك فعلت سلطنة بروناي ومملكة المغرب (كما تقول المطويات الموجودة بمدخل المسجد والتي تدعوك للتبرع في صندوق مخصص لذلك) لكن أهم ما في الأمر هو أن المسلمين من أصل إسباني هم الذين بادروا ببناءه ويساهمون في تسييره، ومادام الأمر كذلك فهو أحسن لأن إسبانيا اليوم وإن كانت تجيز تعددّ الأديان في مجتمعها فإنها غير مستعدة لتفهّم تعدد مفهوم الإسلام عند مختلف الجماعات الإسلامية التي فاق عددها في البلد اليوم 1500 جمعية. وإن كان ذلك دليلا على الصحوة والبركة فإنه مؤشر أيضا على التشرذم والانقسام الذي جعل الحي الواحد في المدينة الإسبانية الواحدة يضم جمعيتين إسلاميتين مختلفتين ومتناحرتين للأسف الشديد. لذلك فأفضل شيء يمكن أن يخدم الإسلام والمسلمين هو أن نترك

هذا المسجد في يد أصحابه من الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام (وهم عادة ينحدرون من عائلات كاثوليكية) فربما كان ذلك أحسن وأنفع للأمة من الانقسام إلى سني وشيعي وصوفي ومشرقي ومغربي.

صليت المغرب في المسجد ثم نزلت عبر دروب حي البيازين الضيقة متجها إلى أحد المطاعم الحلال المتواجدة بقرب بلازا نويفا (الساحة الجديدة) وهي ساحة جميلة تنتشر فيها المطاعم ومحلات بيع التحف التذكارية.

التمشي في ليلة صيفية عبر الأزقة والشوارع المضاءة والعامرة في غرناطة ممتع جدا. لكن الجوع سيرمي بك عند أول طاولة في المطعم الحلال الذي كنت قد اكتشفت وجوده من خلال مطوية أخذتها قبل الخروج من المسجد .

طلبت سندويتشا وعبوة صودا وجلست أتأمل حصيلة اليوم من الصور التي التقطتها بهاتفي، جاءني النادل بما طلبت ثم سألني عن البلد الذي أتيت منه فقلت له إنني من الجزائر.. رحّب بي مرة أخرى وبدأ يكلمني متحمّسا عن اتحاد المغرب العربي والوضع الجيوستراتيجي في المنطقة وأهمية فتح الحدود والتنسيق السياسي والتكامل الاقتصادي شارحا الأسباب ومحصيا النتائج.. وأتذكر أني قلت له ما معناه: رانا في بلاد برّة مذابيك، اتهلى فيّا ونتهلىّ فيك، واخطينا من تكسار الراس والبوليتيك..

حين أنهيت السندويتش الذي كان معطّرا بألذّ توابل الدنيا وهي الجوع، تقدمت إلى داخل المحلّ كي أدفع ما عليّ ومرة أخرى قابلني شاب عربي وسألني من أيّ البلدان أنا، فأجبته مرة أخرى: أخوكم من الجزائر.

ولما سألني من أي المناطق أنا من الجزائر، قلت له أن المغاربة عموما يعرفون من الجزائر عاصمتها ومدينة وهران فقط وإن كنت أنتمي للمدينتين بحكم الاستقرار والعمل، إلا أن أصولي من الصحراء. وهنا قال لي إنه جزائري وأيضا من الصحراء. تبين لي بعدها أنه مزابي من بلدة القرارة (الدنيا صغيرة) ودعاني إلى كأس من الشاي على حسابه بينما انصرف هو للعمل فلا مجال هنا للتكاسل أو التهاون في لحظات وساعات الشغل حتى وإن كان الزائر من أفراد عائلتك المقربين، أما أنا فقد غادرت المحل بعد ثلاث كؤوس صغيرة من الشاي (وفق ما تقتضيه العادة الميزابية) كي لا أحرجه أكثر.

دخلت الفندق ليلا واستلقيت أفكر في يوم الغد وكيف سأستيقظ في الصباح المبكر للتوجه نحو قصر الحمراء والتجول في حدائقه وآثاره. ورحت استجلب النعاس عبر التجول في حدائق التاريخ وقصصه وعِبره، من خلال هاتفي الذي كنت قد حمّلت فيه معظم الكتب التي تتحدث عن القرون الثمانية التي اقتسمها المسلمون في هذه الربوع مع السكان الأصليين، والتي تتجاوز إلى يوم الناس هذا المدة التي قضاها الإسبان الكاثوليك لوحدهم في السيطرة على

البلاد الإسبانية ولله الأمر من قبل ومن بعد وتلك الأيام نداولها بين الناس.

كنت لا أزال في المرحلة الابتدائية حين تعرفت على طارق بن زياد وفتح الأندلس، فقد كان في غرفتي كتاب صغير يتحدث عن الفتوحات الإسلامية طالعته أكثر من مرة، وفيه قصص عن معارك صلاح الدين ضد الصليبيين والظاهر بيبرس وقطز ضد المغول وطارق وموسى بن نصير في فتح الأندلس. ولم أنتبه إلى قِصر المدة التي تم فيها فتح الأندلس إلا في فترة متأخرة، مما دفعني لتكثيف مطالعاتي حول هذا الموضوع والذي بدأ فضولي يتشكل اتجاهه خاصة، منذ أن طالعت كتابا مثيرا للجدل حول حقيقة إحراق طارق للسفن التي عبر بها المضيق لفتح الأندلس. وخلاصة الكتاب أن طارق كان أمازيغيا وأن تلك الخطبة البليغة المثيرة كانت من إضافات «التاريخ يكتبه المنتصرون» وأن السفن أصلا لم تكن ملكا له بل أعارها لهم الكونت يوليان حاكم سبته (تقع جغرافيا في المغرب لكنها تابعة اليوم لإسبانيا).

التعمق في تاريخ فتح الأندلس وقراءة ما حدث طيلة هذه الفترة الطويلة جدا سيفتح عقولنا الكسولة (التي تغذيها المعلومات العامة والحقائق الجاهزة) على قراءات مثيرة ومذهلة، ومنها أن الفتح لم يكن غزوا عسكريا بقدر ما كان شبه ثورة داخلية في إسبانيا نفسها على اعتبار أنها كانت تدين بالمسيحية الآريوسية وهو مذهب لا يعترف

بالتثليث ولا بألوهية المسيح عيسى بن مريم، مع تواجد كبير لطوائف يهودية يؤمنون بربّ واحد كما يؤمن المسلمون أيضا. وهذا ما يفسر سرعة وشكل التوسع الإسلامي في إسبانيا، خاصة وأن الوحي يعرّف الإسلام ليس كدين جديد ناشئ مع نبوة الرسول محمد (ص) ولكن كالدين الأساسي والأول منذ أن نفخ الله في الانسان من روحه «قل ما كنت بدعا من الرسل».

وقد لخص كاتب إسبانيا الكبير بلاسكو ايبانيز كل المشهد في قوله: في إسبانيا، لم يأت الإحياء من الشمال، مع الجماعات البربرية، بل إنه جاء من الجنوب مع العرب الفاتحين، فتلك كانت حملة تمدينية أكثر منها فتحًا، دخلت بها إلى بلادنا تلك الثقافة الفتية القوية المستنفرة بتطوراتها المذهلة بسرعتها، التي ماكادت تولد حتى انتصرت، وتلك الحضارة التي خلقها حماس النبي، تمثّلت أفضل مافي اليهودية والعلم البيزنطي والتي كانت فضلاً عن ذلك تحمل معها التقليد الهندي العظيم، وذخائر فارس وكثيرًا من الأشياء المقتبسة من الصين التي تكتنفها الأسرار. كان الشرق ينفذ إلى أوروبا ليس كما كان شأن دارويس وكزركس بطريق اليونان التي كانت تصدهم لكي تنقذ حريّتها، ولكن من الطرف الآخر بطريق إسبانيا التي كانت مستبعدة لملوك لاهوتيين وأساقفة متقشّفين للحرب، استقبلت بالترحاب غزاتها هولاء" ويضيف قائلا: «ففي عامين استولى هؤلاء على ما استلزم سبعة قرون لإسترداده منهم. فلم تكن تلك غزوة تفرض بقوة السلاح، بل كانت مجتمعًا جديدًا ينمّي جذوره القوية في جميع الجهات.

كان مبدأ حرية العقيدة، الركن الأساسي الذي ترتكز إليه عظمة الأمم الحقيقة غاليًا عليهم ففي المدن التي كانوا أسيادًا فيها كانوا يقبلون بكنيسة المسيحي وكنيس اليهودي».

أما حروب الاسترداد (الريكونكيستا) التي انتهت بتسليم غرناطة في 1492 فهي في الحقيقة لم تكن حربا لطرد غزاة مستعمرين يختلفون عن النصارى بقدر ماكانت حربا أهلية تم فيها بالنهاية طرد سكان أصليين للبلد ذنبهم الوحيد أنهم كانوا يشكلون مع العرب والأمازيغ والصقالبة ما يسمى بالمسلمين، بل إن بعض الموريسكيين الذين نزلوا ببعض سواحل المغرب هربا من بطش الإسبان تعرضوا للسلب والقتل من طرف السكان المحليين بعد أن ظنّوهم غزاة أوروبيين (كانوا ذوي بشرة بيضاء وشعر أشقر) ثم إن الإسلام لم ينته في إسبانيا بسقوط غرناطة، بل تواصلت ثورات المسلمين هنا وهناك لتتوج بثورة جبال البشرات في جنوب غرناطة في أواخر القرن السادس عشر،كما تشير المصادر إلى إعدام مسلمين في غرناطة في القرن الثامن عشر. هذا دون الحديث عن أن أوروبا بكاملها وبمباركة من البابا، كانت تشارك في تلك الحرب المخزية خاصة بعد أن قام العثمانيون بابتلاع أجزاء واسعة من شرق القارة العجوز وكانوا سيصلون إلى التهام فيينا ذاتها بعد ذلك.

الإسبان من جهتهم وتلك دورة الحضارة، بدأوا في تلك الفترة بالتحول إلى قوة بحرية واستعمارية عظيمة بعد أن أضاف كريستوف

كولومبس العالم الجديد إلى خريطة العالم والتاج الإسباني، وانطلقوا بأساطيلهم يستعمرون مدنا وحواضرا وجزرا في البحر المتوسط والشمال الإفريقي لازالوا يحتفظون ببعض منها إلى يوم الناس هذا. ولو أنهم أصيبوا بخيبة أمل في الفليبين حين وصلوها ووجدوا الإسلام منتشرا هناك وهم الذين كانوا يعتقدون أنهم بصدد اكتشاف أراض جديدة لم تسبقها إليهم حضارات أخرى.

زيارة إسبانيا ولو لغرض سياحي محض، هي بالضرورة زيارة للتاريخ بكل ما فيه وما له وما عليه، وإطلالة بديعة من نافذة التاريخ على معالم الحاضر، تجلعنا نكتشف أشياء كثيرة في واقعنا المعاش، وربما نستشرف أحداثا ستقع في مستقبلنا، لأن التاريخ دورات كما شرح ذلك ابن خلدون في مقدمة تجعلنا نكتشف العرض والخاتمة في كل حضارة.

ولأن الوقت كان متأخرا فقد غططت في نوم عميق لأستيقظ على صوت المنبه على الساعة الخامسة والنصف صباحا يوم الأربعاء 13 سبتمبر 2017.خرجت من الفندق دون إفطار وتوجهت مشيا إلى مرتفع السبيكة الذي يقبع فوقه قصر الحمراء.الشوارع كانت خالية من الناس والقطط والسيارات،لكن بعض عمال النظافة كانوا بكامل عدّتهم وجدّيتهم يغسلون الأرصفة والساحات سويعات قبل استيقاظ السكان صباحا ليتوجهوا إلى أعمالهم، في مدينة نظيفة تحافظ على أناقتها وزينتها ويهمها أن تجعل معنويات مواطنيها مرتفعة دوما.

رحت أتتبع مجرى المياه النقية أسفل ربوة البيازين قبل أن أتجه صعودا إلى الحمراء، البرودة كانت تنبعث من مياه نهر حدّرة أو الدّارو كما يسميه الإسبان، وتسلّيت بمسابقة خيالي الذي راح يتمددّ في درب صاعد تساعده في ذلك بعض الأضواء العمومية الخافتة. أبراج الحمراء الخارجية التي أتمشى عند أقدامها توحى بالهيبة والعظمة ومظهر القصر ككلّ تحت ضوء القمر يزيده شموخا وجلالا.

الساعة السادسة والربع، الظلام كان حالكا حين وصلت إلى المدخل، لأتفاجئ بعدد الموجودين هناك من سياح من كل الأجناس، جاؤوا في هذا الوقت المبكر للظفر بالتذكرة الثمينة .لقد اصطفوا جماعات وفرادى في انتظار الساعة الثامنة، منهم من يطالع كتابا على ضوء مصباح صغير ومنهم من جلس على الأرض يسمع الموسيقى ومنهم من كوّن صداقات جديدة داخل الطابور وقد زاد البرد الموجود في المكان من دفئ المحادثات وتبادل الأحاديث.

أشعلت هاتفي ورحت أكمل قراءة كتاب «حكايات الحمراء» لواشنطن ايرفينغ وهو كتاب لذيذ وممتع، جمع فيه هذا الدبلوماسي والروائي الأمريكي حكايات عديدة عن القصر وساكنيه والأساطير المتوارثة المرتبطة به.

لما بدأت خيوط أشعة الشمس ترسم أضواءها الأولى فوق المكان انتبهت إلى زوجين كانوا قبلي في الطابور، وكانت الزوجة المتحجبة تتكلم مع إحدى الشابات بجانبي عن العطلة في إسبانيا وعن تربية

الأولاد والأجواء الباردة في جنوب إفريقيا.. التحدث في أي شيء يمكن أن يدفع عقارب الساعة للدوران بسرعة أكبر كما يقال، لذلك انضممت للحديث وسألتهما عن رأيهما في صعوبة اللغة الإسبانية على السياح، خاصة وأنهما كنا تتكلمان بلغة إنجليزية سليمة ورفيعة جدا..

ولا غالب إلا الله..

Quien no ha visto Granada ,no ha visto nada

انضم إلينا الزّوج ورحنا نتحدث أربعتنا عن ما الذي ينتظرنا خلف هذه الأسوار وما الذي نتوقّع أن نراه ونكتشفه بداخل هذا القصر المهيب الغارق في حدائقه وزهوره وأساطيره. كان الزوجان اللذين قدما من جنوب إفريقيا لحضور ملتقى علمي بمدريد قد استغلا الفرصة لزيارة غرناطة وفشلا قبل يوم في الحصول على تذكرة لدخول القصر العربي، وهما يعاودان الكرّة اليوم. انبهر الرجل لطول الطابور وعدد السياح الذين يريدون الدخول فقلت له أن هناك جنة بالداخل والجنة الحقيقية غدا ستقف أمامها أعداد أكبر من هذه بكثير.

دق جرس الثامنة وبدأ صف السياح بالتحرك نحو الأكشاك، كنت أراقب من مكاني سير الأمور التي كانت منظمة بشكل جيد، لكن قبل أن يصلنا الدور ارتفع صوت إعلان بمكبر الصوت يعلم الجميع أن تذاكر الزيارة العامة قد نفذت وأن الزائرين بإمكانهم فقط اقتناء

التذاكر المتبقية لزيارة الحمراء بأكملها ماعدا القصور النصرية .

خيبة الأمل ارتسمت على وجوه جميع من كانوا ورائي، ورحت أواسي أصدقائي الجدد بما معناه أن الإنسان يجب أن يترك أشياء لم يرها كي يتشجع على العودة لرؤيتها من جديد أو كما تقول الحكمة عندنا وبكل اختصار : خلّي باش تولّي. وقد اقتنعوا بما قلت بل وأعجبوا كثيرا بهذه المقولة التي رفعت من معنوياتهم .

في مدخل القصر شبابيك لشراء التذاكر نقدا، وشبابيك إلكترونية وكشك صغير لاكتراء سماعات تشرح لك بكل لغات العالم ما الذي يحويه هذا المعلم. دخلت مباشرة إلى الحديقة وبدأت في المشي والاستمتاع منذ اللحظات الأولى بالجو المنعش الذي تعطّره أزهار من كل لون وأشجار من كل نوع، تفتح شهيتك لاستقبال يوم بطعم التاريخ وتوابل الجغرافيا داخل مباني الحمراء.

أول ما زرته من الحمراء هو القصبة أو الحصن العسكري بأبراجه المرتفعة والتي يمكن من أعلاها أن تشاهد منظرا جميلا لأحياء غرناطة المستلقية في دلال واطمئنان أسفل القصر، تزينها الأشجار المخضرة التي لا ينال من ألوانها الخريف ولا يضرّ جذورها حرّ الصيف. بعدها توجهت إلى موقع القصور النصرية لكن دون أن أدخلها وقد كانت هنالك طوابير مصطفة في نظام للدخول ومشاهدة نافورة الأسود وقاعة السفراء وقاعة الأختين وبرج قمارش والمشور والقصر الملكي وغيرها من الآثار الإسلامية التي ألهمت ألسنة الشعراء وأقلام الأدباء

عبر كل العصور وحتى عقول رجال العلم والرياضيات المعاصرين. ففي قصور المسلمين هنا عجائب هندسية ورياضية لا زالت قيد الدراسة والاكتشاف لدرجة أن مبنى المعهد الأمريكي للرياضيات في كاليفورنيا اليوم هو نسخة طبق الأصل عن قصر الحمراء بالأندلس وقد فعل الأمريكيون ذلك تكريما للعقل الرياضي الذي استطاع في تلك القرون الخوالي أن يهندس هذه التحفة بينما شيد أحد الأمراء السعوديين الذي أعجب بالحمراء قصرا يحاكي هذه الدرة في كل تفاصيلها في المملكة.

من المباني الحديثة نوعا ما (مقارنة بتاريخ بناء القصور العربية المتواجدة داخل الحمراء) مبني ضخم مربع الشكل بني في القرن السادس عشر، يعطيك الاحساس أنه وضع هنا عنوة دون استئذان. ذلك هو قصر شارل الخامس والذي أراد بعض حاشيته أن يتقربوا إليه فزعموا أنهم سيبنون له قصرا أفخم مما هو موجود، وقاموا للأسف بهدم جزء من قصور السلاطين المسلمين ووضعوا مكانه هذا المبنى المربع الذي يحوي ساحة وشرفة دائرية بداخله كإشارة على سيطرة مملكته المربعة على العالم الدائري أجمع، وقد سمعت أحد المرشدين السياحيين يقول لمجموعة سياح أمريكيين إن ملّاك القصر بعد طرد المسلمين أرادوا أن يخبئوا جمال القصور النصرية وراء هذا الصرح الكبير، فأجابه أحد السياح ببداهة: إن الفرق بين البنائين كالفرق بين الزيت والماء لن يلتقيا مهما تجاورا.

دخلت هذا المبنى وتجولت داخل ساحته الدائرية ثم وجدت في أحد صالاته متحفا فدخلت أكتشف ما فيه وأتجول بقاعاته لأصل في إحدى أركان تلك القاعات إلى حاجز زجاجي كبير ومزخرف، ومن ورائه يمكنك أن تطل مباشرة على ساحة المشور وبرج قمارش العالي الذي تنعكس صورته على بركة الماء وهذا المنظر المهيب هو من أجمل ما تخفيه قصور بني نصر إضافة إلى نافورة الأسود. هناك وجدت سائحة إنجليزية ظلت تتأمل المنظر وتردد على مسامع صديقتها التي كانت برفقتها الرواية المشهورة حول زفرة العربي الأخيرة وحكاية «إبكي كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال». فسألتها ما الذي كانت ستفعله هي لو كانت في مكان عائشة الحرة وهل كانت ستقول نفس الكلام لأبوعبد الله الصغير، ولكنها أجابتني بكل ثقة أنها كانت ستعمل على تربيته على الشجاعة والتضحية كي يقاوم إلى النهاية ويموت مقاتلا بين أسوار حصنه وأشلاء جنوده. لكن بعيدا عن بطولات وليام والاس الانجلوساكسونية يرى بعض الإسبان المعاصرين أن أبو عبد الله الصغير تحلى بقدر كبير من الشجاعة والحكمة حين أهدى للعالم قصرا مهيبا دون أن يحرقه أو يهدمه، وبفضله أصبحت الحمراء اليوم ملكا لكل الإنسانية. أما إن أردنا كعالم عربي وإسلامي أن نأخذ عبرة ما من الحمراء فهي الانتباه إلى أهمية المعلم التاريخي والثقافي الذي يبقى رغم مرور قرون طويلة أهم وأغلى من أكبر آبارنا النفطية حجما وإنتاجا، فإذا كانت الحمراء لإسبانيا كالنفط بالنسبة لنا فالإسبان على الأقل لن يصيبهم تلويث ولا يخشون نضوب المورد

في المستقبل المنظور.

لاغالب إلا الله جملة ستقرؤها في كل قوس وباب وسقف وجدار تمر به في الحمراء وهي جملة أصبحت شعارا لغرناطة وتجدها بكثرة في التحف التذكارية بكل أنواعها: أقمصة، صحون، ملصقات، صور..

وسر هذه الجملة التي أصبحت علامة مميزة لدولة بني الأحمر في غرناطة هو أن محمد بن يوسف بن نصر مؤسس دولة بني الأحمر التي استمرت لمدة قرنين ونصف بعد سقوط أهم المدن الاندلسية، كان متحالفا مع ملوك قشتالة وساهم في حصار وإسقاط إشبيلية سنة 1248 بعد أن تم للنصارى الاستحواذ على طليطلة وسرقسطة وقرطبة قبل ذلك. وحين عاد إلى غرناطة خرجت بعض الغوغاء تحتفل بنصره وراحوا ينادون في الشوارع الغالب ..الغالب.. الغالب. فقال قولته المشهورة «ولاغالب إلا الله» وعكس تلك الجملة على جميع جدران الحمراء وكذلك فعل أبناؤه من بعده.

صحيح أن مملكة غرناطة قامت بجمع شتات ما تبقى في جنوب الأندلس من إمارات كألمرية ومالقة ورندة وقادش وصولا إلى ماربيلا وجبل طارق وانتهجت سياسة التحالف مع النصارى ودفع الهدايا والجزية للحفاظ على وجودها، واستفادت كثيرا من تقاتل الممالك المسيحية فيما بينهم مما أخر سقوطها كل تلك المدة، لكنها كانت كالثور الأسود تنتظر مصيرها المحتوم بعد مقتل الثور الأبيض، خاصة وأنها بلغت في آخر السنوات قبل السقوط حالة من الانقسام

والتشرذم جعلت للمدينة أحيانا أميرا يحكم الحمراء وأميرا آخر يحكم البيازين وأميرا ثالثا يحضر لانقلاب آخر على عمّه أو أخيه من جارية نصرانية ..

لقد ذهبت اليوم دولة بني الأحمر وذهبت كل الممالك والطوائف وذهب الجلادون والسجانون ورحّل الموريسكيون ومنعت اللغة العربية واللباس والمأكل والتسميات وأقيمت محاكم التفتيش وأحرق الناس والكتب ونشأت لغة الألخميادو (إسبانية ركيكة مكتوبة بأحرف عربية) ثم اندثرت ومات من مات وهاجر من هاجر وبقيت جدران الحمراء وحدها كعبرة حية تقول لكل من يزورها: إن البقاء والغلبة والقوة لله جميعا.

جريان المياه في قصر الحمراء علامة مسجلة باسم المسلمين، فلن تجد في الحمراء بركة آسنة أو ماء راكدا وهذه ملاحظة يشدد عليها جميع المرشدين السياحيين هنا الذين تتعثر أذناي بمعلوماتهم في كل ركن من القصر، فألتقط منها أحيانا ما يمكن أن أتعلّمه، بالإضافة إلى ما طالعته عن المكان. إنهم يخبرون السواح أن علاقة المسلمين بالماء علاقة متينة دينية ودنيوية.

فبعيدا عن الحمامات التي عرف بها المسلمون في الأندلس والسواقي التي حفرها هؤلاء في جبال السيرانيفادا والتي تبلغ مئات الكيلومترات لسقاية وري المزروعات وإحياء القرى والبلدات، فإن مهندسي الحمراء قاموا باستجلاب المياه عبر قنوات طويلة من

الجبال والبحيرات لتوزيعها في أرجاء القصر. إن المياه بمثابة الشريان الذي يمنح المكان شبابا ونضرة دائمة سواء عبر الاخضرار الذي يعمّ المكان أو عبر انعكاس بريقها وحركتها على الأسقف والجدران فيخيل للناظر أنها حية تتحرك وتومض وتتفاعل مع نظرات إعجابه ..

الحدائق الموجودة في الحمراء أشكال وألوان، منها الأوروبية المنسقة والمشذبة، ومنها الإسلامية العتيقة كجنة العريف، وهي المسكن الصيفي للملوك والأمراء، وتقع في قسم آخر من المكان ومعروفة بنافوراتها التي تنطلق في الهواء لتصب في البركة الرئيسية مشكلة عقدا كحبات اللؤلؤ المنهمر. كل الصور التي تلتقط لهذه الحديقة لا تساوي لحظة حقيقية تقضيها في تأمل جمالها في عين المكان، فالمرء يمكن أن يرسم الوردة لكنه لا يستطيع أن يرسم عبيرها.

لم أشعر بإزعاج ذلك العدد الهائل من السياح الذين يتجولون في كل أرجاء الحمراء، فجميعهم منظمون بشكل جيد، يحملون سماعات ويتمشون بسرعة، يتابعون باهتمام ما يقوله المرشد قائد المجموعة. أحيانا أسمع ضحكاتهم وقهقهاتهم بعد أن يكون هذا الأخير قد ألقى نكتة أو تعليقا طريفا حول المكان.

هناك أيضا مرشد خاص تجده رفقة سائح أو اثنين يحكي لهم بهدوء وتركيز عن كل كبيرة وصغيرة في الموقع، وتبدو هذه الفكرة أحسن وأفيد للمهتمين بفهم تاريخ المكان بشكل أفضل. ولو أنه عليك أولا أن تفهم كيف يمكنك أن تتدبّر المبلغ الذي يجب أن تدفعه بعد

ذلك، فسعر اليورو اليوم لا يغريك حتى بدخول بعض المعالم فضلا عن اكتشاف أهميتها بهذه الطريقة الفعالة والمترفة في آن.

بالقرب من قصر يوسف الثالث وهو المبنى الإسلامي المفتوح للجميع والمطل على حديقة متدرجة يقع القصر في نهايتها مطلا على حي البيازين، التقيت بمجموعة سياح أمريكيين يتجولون دون مرشد وقالت إحداهم للمجموعة :يا للخسارة، تمنيت لو أن الإسبان تركوا المسلمين في هذا القصر حتى يحتفظ القصر بكل كنوزه وأثاثه، ويمكنهم بعدها العيش بسلام، خاصة مع مداخيل السياحة هنا. لكن أحد مرافقيها ويبدو من ملابسه الصيفية أنه يملك حسّ دعابة لاذع، قال لها : يا إلهي هل أنت مجنونة، كيف تتركين من يحتجز في قصره مائة امرأة من الحريم ربما كنت أنت واحدة منهم.. فقالت المرأة: صحيح، لم أفهم إلى يومنا هذا كيف يستطيع رجل أن يجمع في بيت واحد كل هذا العدد.. زوجي العزيز لا يحتمل أحيانا وجودي إلى جانبه بمفردي فكيف بمائة مثلي..

الغربيون كما لا حظت من خلال جولتي (التي لم أشعر بحاجتي فيها إلى إلقاء نظرة على الساعة إلا بعد مرور خمس ساعات كاملة من التنزه) يعطون أهمية كبيرة في هذا المكان لسماع القصص التاريخية لكنهم يهتمون أيضا بالأزهار والحدائق والأشجار وهم يعرفون أسماء النباتات على اختلاف أنواعها ويعرفون تسميات الورود على اختلاف أحجامها وروائحها بينما أصدقكم القول أنني أعتبر الشجرة شجرة

والعصفور عصفورا والوردة وردة دون الدخول في التفاصيل. ربما لأن تفاصيل البيوت والمدن والشوارع التي نعيش فيها، والحياة التي نحياها بصفة عامة، لا تعطينا هذه الميزة والإمكانية والفرصة للتمييز والتفصيل وتكتفي بمنحنا عموميات الحد الأدنى من كل شيء.

قضيت سبع ساعات من التجول والتأمل في قصر الحمراء، كانت بمثابة جرعة كافية لشحن طاقة إيجابية أكمل بها بقية الجولة المسائية في حي البيازين، على أمل عودة مقبلة إلى نفس المكان واكتشاف ما لم أتمكن من زيارته من قصور وغرف قرأت عنها في الكتب وشاهدتها في الصور دون أن تتاح لي فرصة دخولها وتأملها عن قرب.

خرجت من الحمراء في المساء وقد بلغ مني التعب مبلغه وتوجهت نحو الفندق مباشرة كي أنعم بقسط من الراحة وأيضا لتدوين بعض المعلومات والانطباعات قبل نسيانها. فالمرء يجب أن يكتب عند التجربة الأولى لأن الأحاسيس الأولى أصدق وأعمق وأجمل بكثير من الأحاسيس التي تعوّدت على تكرار التواجد في المكان، ولذلك نجد أجمل القصائد والأشعار التي قيلت في مكة قد كتبها شعراء من بلاد المغرب الإسلامي زاروها مرة واحدة فقط.

في نهاية الأمسية رحت أتجول قليلا في المدينة قبل أن أصعد مرة أخرى لحي البيازين، الذي أصبح مكاني المفضل، وأتوجه إلى المسجد الجامع لأنتظر في هدوء غروب الشمس على الحمراء قبل الصلاة.

يحدث أحيانا أن تكون فكرتك عن المكان أكبر وأجمل من المكان ذاته، ويحدث أن يكون المعلم الذي زرته أصغر من الصورة الذهنية التي كوّنتها عنه، فتقول في نفسك أنك كنت تراه في الصور والمجلات والكتب كبيرا ومهيبا وضخما وبديعا لكن ظنك خاب في النهاية.

اطمئن تماما، فذلك لن يحدث معك في حمراء غرناطة ولا في غرناطة الحمراء، فهذه الأخيرة أجمل بكثير مما تبدو عليه في أي شريط وثائقي رأيته من قبل. وستدرك كما يقول المثل هنا، أنه لا يمكن أن يتشابه في الحياة شخصان، أحدهما رأى غروب الشمس في غرناطة، وآخر لم يره بعد.

ستتأكد لاحقا أيضا أن هذه المقولة أحيانا تنطبق حتى على الشخص الواحد، فالمرء هنا لا يشبه نفسه التي أتي بها من بلده، بل سيصبح شخصا آخر ستتمنى أن تكونه دوما، لكن هذا الآخر سيغادرك حتما، في ذات اللحظة.. التي ستغادر أنت فيها المدينة.. أو هكذا اكتشفت بعد ذلك.

ليس سهلا أن تغادر غرناطة إلا إذا دعتك قرطبة

VOYAGER EST LA SEULE CHOSE QU´ON ACHÈTE QUI NOUS REND PLUS RICHE

خرجت من جامع غرناطة وتركته غارقا في هدوئه وإضاءته الخافتة لأنزل من جديد لأسفل المدينة بعد إطلاله سريعة على شرفة سان نيكولا، أين جلس السياح في هدوء الليل لمشاهدة أضواء الحمراء في المرتفع المقابل. الجميل في المعالم الأثرية والتاريخية في إسبانيا أنها مضاءة ليلا بطريقة تجعلها تبدو للعيان من مسافة بعيدة، وتمنحها هيبة وفخامة وجمالا، كما تعطي للّيل بصفة عامة لمسة فنية حالمة تروق للناظر مهما كان موقعه.

نزلت إلى أسفل حي البيازين لأعبر إلى حي آخر به شوارع ضيقة وقد انتشرت به دكاكين لبيع التحف التذكارية والمأكولات الشرقية ويبدو أن أصحابها من العرب المغاربة وحتى من المشارقة.

دخلت أحد محلات بيع السندويتشات الحلال وكان صاحبه

فلسطينيا وقد رحب بي كثيرا حين علم أنني من الجزائر ولم أنس أن أترك له بعض حبيبات التمر التي حملتها معي، وكنت أستعين بها على إسكات عصافير البطن التي أحيانا ما تفاجئني بزقزقة خفيفة بين الأوقات.

الشارع ليلا كان عامرا وكذلك كانت المقاهي والحانات والساحات لكني فضلت التوجه مباشرة إلى النوم بالفندق، خاصة وأنني مستيقظ منذ الخامسة صباحا والرابعة صباحا بتوقيت الجزائر ووهران التي لا تبعد عن غرناطة إلا بأربعمائة كيلومتر.

من الأشياء التي تكتشفها هنا بعد أيام من تواجدك بإسبانيا أو أوروبا عموما هي أهمية التوقيت الصيفي، فنحن صيفا في الجزائر نذهب للعمل على الساعة الثامنة صباحا كما نفعل في فصل الشتاء لكن المثير في الأمر أن الشمس تشرق قبل الخامسة صباحا أحيانا، والفرق بين الخامسة والثامنة صباحا ثلاث ساعات كاملة وهي تقريبا نصف يوم عمل يذهب هدرا للأسف.

صباح يوم الخميس 14 سبتمبر 2017 استيقظت على الثامنة والنصف ونزلت كأي سائح كسول إلى مطعم الفندق لتناول وجبة الإفطار وهي عبارة عن حليب وقهوة وعصير وبعض الفواكه والأجبان قبل أن أخرج للشارع في نشاط وحيوية للتجول فيما تبقى من هذه المدينة أو بالأحرى فيما تبقى لي من وقت هنا، إذ من المفترض أن أقلع في حافلة الواحدة زوالا المتجهة إلى قرطبة.

مما لاحظته أن الناس تستيقظ مبكرا جدا لمباشرة أعمالها، عكس ما يروج عن الإسبان من كسل وحب للقيلولة والاحتفال (ولو أن هذه المظاهر موجودة أيضا) وقد شاهدت كيف أن عازف القيتارة في الشارع اتخذ مكانه المعتاد على الساعة الثامنة إلا خمس دقائق تمهيدا لعزف مقاطع صباحية ملهمة يمكن أن تنعش صندوقه الصغير الموضوع بجانبه ببعض الملاليم.

شاهدت أيضا عددا من المتسولين الذين ينتشرون هنا وهناك، لكنهم وإن كانوا يحملون قططا وكلابا، ويجرّون بعض العربات ويحملون حقائب ظهر ضخمة إلا أنهم لا يحملون أطفالا صغارا (أما من أين يأتي المتسولون عندنا بأطفال رضّع لا يكبرون أبدا فهذا ما لا أعرفه).

ما أثار انتباهي أيضا هو أن بعض شوارع مدينة غرناطة أضيق بكثير من شوارع مدننا، بل إن هناك بعض الطرق وسط المدينة لا تمرّ عبرها إلا سيارة في اتجاه وحيد لكن المدهش في الأمر هو عدد المواقف الموجودة تحت كل بناية وساحة، لدرجه أن المرء يتساءل متى تم حفر كل هذا العدد منها.

ويبدو جليّا أن الناس في أوروبا عموما لا تستعمل السيارة للتسكع وحرق البنزين بأنواعه، بل للعمل وقضاء الحوائج لا غير، ويمكنك مشاهدة عديد الناس من مختلف الأعمار المستويات الاجتماعية يقودون الدراجات الهوائية في مسالك خاصة عبر الشوارع والأرصفة، وهي بالمناسبة تعطيهم لياقة بدنية جيدة وتخفف الزحام والتلوث

عن مدنهم الجميلة.

ذهبت إلى ساحة باب الرملة أوبيب رومبلة كما تسمى هنا بغرناطة (ساحة تم فيها إحراق عشرات الآلاف من كتب الحضارة الاندلسية سنة 1501 بإشراف من الراهب سينيروس) وهي مكان فسيح انتشرت به المحلات والمطاعم حيث اقتنيت بعض التحف التذكارية. الجميل في التحف أنك تجد منتوجات من كل الألوان والاشكال ولكل الأذواق الذكورية والأنثوية وذلك ما يسهل عليك إيجاد هدية مناسبة لكل فرد من الأصدقاء والعائلة وليس من صعوبة في الأمر عدا الاختيار والانتقاء.

زرت أيضا كاتدرائية غرناطة الفخمة والتي بنيت مكان المسجد الجامع (الذي لم يبقى منه شيء يذكر) وهي بناء عظيم وفخم يكاد يحجب الشمس عن الساحة المجاورة لمدخلها، وزرت بالمرة سوق القيصرية وهو متواجد بنفس موقع السوق القديمة التي أحرقت عام 1843 وكانت تشبه الأسواق الشعبية بالمغرب الأقصى. لفظ القيسارية لازال يطلق إلى الآن على الأسواق بصفة عامة في المدن العتيقة في بلدان المغرب العربي كتلمسان أما أصل التسمية فيقال إن العرب تداولوها عن عهد أحد القياصرة الرومان الذي أعطاهم امتياز تجارة الحرير فأطلقت التسمية على أسواق الحرير ثم انتشرت لتشمل الأسواق عموما.

لقد احتفظت غرناطة بمعالمها الأصلية لوقت طويل جدا مقارنة

باقي المدن الإسبانية، قبل أن تطرأ عليها التغييرات التي لم تتمكن من طمس كل ما تركه المسلمون في القرون السابقة، والسبب كما يقال إن الملوك الكاثوليك حين استحوذوا على هذه الجوهرة حافظوا على مظاهرها الجميلة وتبنوها بكل مظاهرها، كما يرتدي صياد شرس جلد نمر نادر تغلب عليه وراح يتباهى بذلك أمام الجميع.

وقد سمعت في إحدى الحصص الإذاعية الفرنسية بروفيسورا إسبانيًا يقول في حواره إن غرناطة لو سقطت في معركة داخلية بين المسلمين لتم تخريبها كما خربت المدينة الزهراء من قبل بعد سقوط الخلافة الأموية في قرطبة، وأن الحروب الداخلية بين ملوك الطوائف دمرت الكثير من المعالم ولم يكن المسلمون يستثنون من التحطيم سوى المساجد والجوامع عدا ذلك فهم لا يهتمون بالحفاظ على المعالم الدنيوية من قصور وحدائق للدولة السابقة.

بغض النظر عن موضوعية هذه القراءة من عدمها يبقى تاريخ الأندلس الذي شغل ثمانية قرون كاملة من عمر البشرية والعالم وشبه الجزيرة الإيبيرية طبعا، يحتمل الكثير من الروايات والتفسيرات وهو جدير بالقراءة المتأنية البعيدة عن التنزيه والتقديس وعقد الاستصغار أو الاستكبار.

نسيت نفسي أثناء جولتي الصباحية ومر الوقت بسرعة، كانت الساعة تشير إلى منتصف النهار وخمس وثلاثين دقيقة حين تذكرت أن محطة الحافلات تبعد عن وسط المدينة بعشرين دقيقة كاملة،

وبدأت سباقا ضد الساعة للتوجه إلى الفندق وحمل أغراضي ثم انتظار الحافلة الحضرية التي تمر عبر الشارع الرئيسي في وقت محدد تأكدت منه عبر تطبيق خريطة القوقل. وانتابني شيء من القلق لأن الوقت هنا كالسيف إن لم تقطعه قطعك فعلا، وجاءت الحافلة في وقتها وركبت بسرعة ورحت أستعجل الوصول لكن سائق الحافلة كان يتوقف عند كل إشارة ضوئية وموقف كما يفعل دوما وكأن الأمر لايهمه، ولم أصل إلى المحطة إلا وكانت الواحدة زوالا قد دقت. قفزت بسرعة من الحافلة ودخلت إلى المحطة ركضا ثم نزلت بأقصى سرعة إلى أرصفة انطلاق الحافلات لأجد سائقنا لحسنا الحظ يتحاور بإنجليزية مكسرة مع سائحين اثنين قبل صعودهما، تنفست قليلا وأعطيته تذكرتي، ففتح لي صندوق الحقائب من جديد أسفل الحافلة لأضع أمتعتي وأصعد إلى مكاني بالداخل أين انطلقنا بعد دقيقتين من جلوسي بمقعدي.

انطلقت بنا الحافلة نحو قرطبة ورحت أشاهد من النافذة تلك المناظر التي لا تختلف كثيرا عن جغرافية بلدنا. لوقت طويل كنت أتعجب من تربع إسبانيا على عرش أول منتج ومصدر للزيتون وزيت الزيتون في العالم، رغم منافسة ايطاليا واليونان وتونس أيضا، لكن حين رأيت أشجار هذه الثمرة ممتدة على مد البصر خارج نافذة الحافلة، وتلك الشجيرات الصغيرة منها التي وكأنها زرعت لتوّها، تكسوا التلال الصغيرة والكبيرة ويتم سقيها بتقنية التقطير، فهمت أن هذا البلد الذي ينتج نصف احتياجات العالم من الزيت بفضل

أكثر من ثلاثمائة مليون شجرة زيتون تنتشر في سهوله وجباله ووديانه سوف لن يتخلى عن ريادته في وقت قريب.

جلست بجانبي في الحافلة شابة إسبانية في مقتبل العمر يبدو أنها طالبة في الثانوية، سألتها عن التعليم في إسبانيا وعن سوق العمل والتخصصات الجامعية وكيف تعيش الطبقة المتوسطة الإسبانية في القرى والمدن والأرياف ووجدت عندها الكثير من الأجوبة رغم حداثة سنها.

حين يكون المرء صحفيا فضوليا، سيمارس رياضة طرح الأسئلة أمام كل شخص يصادفه دون مقدمات طويلة. وفي وسائل النقل أثناء السفر تصبح هذه الرياضة ممتعة جدا، لأنها أجمل فرصة تتاح لك للتنزه والسياحة في عقول من تلتقيهم من الناس، فضلا عن أنها أحسن طريقة لتقصير الطريق، وفقدان الإحساس بطول المسافة.

مما حدثتني به جارتي في الحافلة (إضافة إلى مواضيع متشعبة أخرى) إشكالية مصاريف الدراسة الجامعية في إسبانيا، وقد اندهشت كثيرا حين قلت لها إننا في الجزائر ندرس مجانا إلى غاية الحصول على الشهادة الجامعية واعتبرت ذلك شيئا محفزا وخارقا للعادة، ولو أن ما يراه الآخرون فينا ليس بالضرورة ما نشعر به (النفط الذي يجري تحت أقدامنا لن يجعل وتيرة التنمية لدينا أسرع بقدر ما يمكن أن يكون سببا في تحطيمها إلى أن تجف آخر آباره).

خلاصة الحديث مع هذه الفتاة الهادئة التي تطرق أبواب المراهقة باطمئنان ورزانة مقارنة بمن هم في مثل سنها عندنا أو عندهم، هو أن الشباب الأوروبي الذي يترك المنزل طوعا أو كرها حين المغادرة إلى الجامعة في سن الثامنة عشر يتعلم الكثير من الأمور في الحياة بشكل مبكّر، بينما لا زال أبناء الثلاثين عندنا مراهقين لا يمكن أن تعتمد عليهم حتى في إطعام خروف صغير فكيف بإطعام أفراد عائلة كاملة كما يقول أحد أصدقائي (هاذ الشيء ما هدرناش على الذبيح والسليخ نهار العيد).

وصلت إلى قرطبة وقت القيلولة وكانت الحرارة شديدة، فشهر سبتمبر في إقليم الأندلس كشهر سبتمبر في الجزائر لولا أن الأجواء هنا منعشة بعد وقت الغروب.قصدت فندق سيرانو الذي حجزت فيه ليلتين ووجدته بسهولة لأنه لم يكن بعيدا كثيرا عن محطة الحافلات، لم يبق أمامي الآن إلا وضع أمتعتي ثم الاستحمام قبل الخروج في أول جولة استكشافية لمدينة قرطبة هذه المدينة التي تحتفظ بمعلم هو الوحيد من نوعه في العالم

المسجد الكاتدرائية..

عند أسوار قرطبة

Le voyage est le meilleur moyen de se perdre et de se retrouver en même temps

لا يحتاج من يزور أوروبا مرتين كل عشر سنوات أو أكثر، إلى غرفة مؤثثة واسعة، أو مطلة على الشارع أو نوافذ تدخل منها أشعة الشمس، فقد كان كل مبتغاي حين دخلت غرفتي أن أجد سريرا صغيرا وحماما نظيفا ومناشف جديدة، وقد وجدت كل ذلك بالإضافة إلى مكتب صغير كان سيكون مفيدا لو كنا في عصر الورقة والقلم حتى أتمكن من تدوين بعض المشاهدات والملاحظات في السفر عند نهاية المساء، لكن وبما أن زمننا اليوم هو زمن الويفي والانترنيت والهاتف الذكي، فإن الاستلقاء على الفراش وتصفح الشاشة الهاتفية المضيئة كفيل بأن يأخذك في أي رحلة تود الذهاب إليها دون أن يتحرك أي جزء من جسدك عدا ما يلزمه من حركة بسيطة عند الشهيق أو الزفير.

وقت القيلولة عند الإسبان مهم جدا، وهم يؤدونها كفريضة يومية

واجبة، خاصة في الفصول شديدة الحرارة، حيث تقل الحركة في وقت الظهر وتغلق أبواب المتاجر، لكني وفور دخولي إلى الغرفة وضعت أغراضي وأخذت حماما باردا لأتخلص من تعب السفر ثم قفزت خارج الفندق متجها نحو موقع المسجد الكاتدرائية، فقدماي لا تستطيعان أن تنعما بالراحة على بعد عشرات الأمتار من ذلك المعلم، الذي نشاهده في الأشرطة والصور بأقواسه الحمراء والبيضاء البديعة التي تنتصب فوق غابة من الأعمدة داخل جامع قرطبة وتعتبر أيقونة أبدية للحضارة الأندلسية بصفة خاصة والإسلامية بصفة عامة.

أعتقد أن أول مرة قرأت فيها عن هذا المسجد عدا ما نعرفه عن حضارة الأندلس وطارق بن زياد والبحر من ورائكم.. هو ما جاء في كتاب موسوعي عنوانه «قل لي أين يوجد» وهو كتاب رائع كنت استعرته من أحد الأصدقاء في سنتي الدراسية السابعة، لقد كان عبارة عن موسوعة ملونة تجد بداخلها صورا مرسومة للمدن والحضارات القديمة والمعالم الطبيعية أو الأثرية أو المعمارية وأمامها فقرة مكتوبة بشكل مختصر عن تلك المواقع.. كان ذلك الكتاب نافذة مذهلة لي على العالم، اكتشفت عبر صفحاته أن العالم المحيط بنا أكبر بكثير من الحي الذي أسكنه في مدينة غرداية.

وحيث أننا آنذاك لا نملك إلا قناة وطنية واحدة وجهازا تلفزيونا واحدا نضطر إلى تحمل رداءة صورته (وصوته الذي يرتفع أحيانا فجأة ودون سابق إنذار) فقد كان ذلك الكتاب خير مؤنس لي وكنا لا أملّ

من قراءته وإعادة قراءته كلما أنهيته.

في تلك الموسوعة الملونة اكتشفت شلالات نياجارا وقصر باكينغهام والمزيد عن برج إيفل وقوس النصر ومعابد حتشبسوت والكرنك وأبو سمبل وبعض المعالم الطبيعية التي يمكن أن تكون معروفة للجميع اليوم عبر الانترنيت، لكنها في ذلك الوقت كانت فتحا مبينا لتلميذ في سني، مثل كثيب «بيلات» أعلى كثيب رملي في فرنسا وأوروبا، أو نخيل ألش في إسبانيا، تلك الواحة الأكبر من نوعها في القارة الأوروبية، ولا أدري لماذا أتذكر تلك الفقرة بالذات حول نخيل ألش والتي عرفت مؤخرا أن اسمها بالإسبانية «إلتشي» وأنها مدينة جد معروفة للبزناسة (تجار الشنطة) عندنا لأنها قريبة من مدينة أليكانتي وتشتهر بجودة الأحذية فيها على حد قولهم.

لا زلت أدين بالكثير لبعض الكتب التي صادفتها في مرحلة ما من العمر، والتي كان لها عظيم الأثر في تغذية فضولي وشغفي بكل ما هو تاريخ إنساني وجغرافية طبيعية، وقد أردت هنا أن أردّ ديني لهذا الكتاب بالذات الذي لازلت أبحث عن نسخته الورقية إلى اليوم وأتمنى أنني قد فعلت.

من خلال تصفحي لبعض المواقع والفيديوهات حول مدينة قرطبة قبل أن أزورها تشكلت في ذهني فكرة عن مدينة يمكن أن نختصر آثارها وجمالها في معلمين أثريين بارزين، هما المسجد الكاتدرائية والجسر الروماني على نهر الوادي الكبير، لكن وأنا أتمشى تائها في

أزقة المدينة القديمة التي لا أدري كيف انتقلت إليها بعد عشر دقائق من المشي (وقد كنت للتو في مدينة أوروبية عصرية بشوارعها الواسعة وأشجارها ومحلاتها الكبيرة عند خروجي من باب الفندق الذي نسيت حتى موقعه) وجدتني في قلب بلدة عتيقة بأزقة ضيقة ومنازل صغيرة مطلية بالأبيض وتتدلى منها شجيرات الياسمين وكل أنواع الورود وقد أعجبتني هذه الأجواء كثيرا.

تحثنا الكتب ومواقع الويب السياحية على عدم حرمان أنفسنا من لذة المشي على غير هدى ودون هدف في أزقة قرطبة الجميلة، وأن لا نستعجل لحظة الوصول إلى المعلم الرئيسي في المدينة، ويبدو أن في هذه النصيحة الكثير من الصدق. لكن الأمر كان مختلفا بالنسبة لي فهذه أول مرة سأتمكن فيها من رؤية جامع قرطبة خارج صفحات الكتب ومواقع النت.. وتلك لحظات حاسمة لكل سائح، فهو من جهة قد أحب تلك الصور التي رسمها عن المكان في ذهنه ومن جهة أخرى نجده سيضطر لتعويضها وإلى الأبد بالصورة الحقيقية التي لا يبعد عنها سوى بخطوات ولحظات معدودة.

كنت أترقب نهاية كل شارع لعلي أخرج إلى المكان الفسيح الذي يستقر فيه هذا البناء العظيم أو أرسل نظراتي إلى السماء لعلها تعود لي بصورة عن المئذنة التي تحولت إلى برج للأجراس قبل قرون من اليوم.

عشرون دقيقة بطيئة كانت المسافة الزمنية الفاصلة بين خروجي

من باب الفندق ووقوفي عند السور الخارجي لجامع قرطبة لألتقط الصور الأولى لأبوابه وزخرفاته، وأشاهد أمامي جحافل السياح التي تلفظها شوارع المدينة القديمة التي تنتهي في مجملها نحو المسجد الكاتدرائية، أو التسمية الرسمية لجامع قرطبة حاليا.

دخلت المسجد من بوابته الكبيرة ووجدت فناء كبيرا انتشر فيه السياح يلتقطون الصور التذكارية بجانب النافورات وأشجار النارنج، رسم الدخول كما قرأت في اللافتة هو عشرة يوروهات كاملة، لكني كنت أعرف من خلال تحضيري للزيارة أن الجامع يفتح أبوابه مجانا للزوار من الساعة الثامنة والنصف إلى التاسعة والنصف صباحا. لذلك واقتصادا للنفقات وتمديدا للحظات الشغف والتمني عزمت على العودة إليه في صباح اليوم الموالي وخرجت مرة أخرى أتتبع السور الخارجي وصولا إلى القنطرة الشهيرة التي تعبر نهر الوادي الكبير.

لا ينتابك أبدا الإحساس بالغربة أو البعد عن البلد وأنت تتجول بين مباني وأزقة مدينة قرطبة فليس هناك شارع ومنزل وسقف وحديقة ونافورة وباب وسور تمُرّ بجانبه إلا وتستشعر قربك من معانيه وقربه من جوارحك، وهو إحساس سيظل ساكنا بداخلك ما دمت مسافرا في ربوع إقليم الأندلس بصفة عامة أو هذا على الأقل ما شعرت به طيلة أطوار الرحلة التي قادتني إلى تلك المدن ماعدا مالقة وبدرجة أقل إشبيلية عاصمة الإقليم.

غير بعيد عن جامع قرطبة والقنطرة يمكن للسائح أيضا زيارة حي سان باسيليو وهو حي جميل بطراز معماري يشبه كثيرا الأحياء العربية، خاصة في باحات منازله التي بنيت كما يبنى المنزل العربي، حيث تطل كل غرف المنزل على فناء مركزي، مزين بأجمل النباتات وأنواع الورود، وتتوسطه نافورة مياه تنعش الأجواء، في مدينة معروفة بدرجات حرارتها المرتفعة في فصل الصيف.

هذا الحي يشهد مسابقة فريدة من نوعها في شهر ماي من كل سنة حيث يقوم أصحاب المنازل بتزيينها بكل أشكال وألوان الورود والأزهار وفتحها أمام السياح والفضوليين الذين سيمنحون أصواتهم لاختيار أجمل باحة منزل مزينة في أجواء احتفالية تدوم طيلة عشرة أيام كاملة. لكن ذلك لا يمنع بعض أصحاب هذه الدور العتيقة من فتحها يوميا أمام الزوار باقي أيام السنة، حيث يمكنك أن تتجول لبعض الوقت في فناء المنزل الذي تجد بابه مفتوحا، وأن تترك بعض القطع النقدية لصاحب الدار قبل الخروج.

درجة الحرارة المرتفعة والتعب الذي بدأ يتمكن من جسدي دفعني للجلوس قليلا أمام بركة ماء نظيفة خارج أسوار المدينة القديمة (والتي ذكرتني بأسوار قصبة الأوداية بالرباط) حيث وضعت أرجلي في مياهها الباردة لأخذ قسط من الراحة وتجديد البطاريات وسماع بعض الموسيقى الأندلسية للمطربة المغربية نبيلة معن التي إن كان هناك لحن وصوت وأداء يود المرء أن يسمعه لاستحضار روح العصور

الأندلسية إلى حاضرنا فلن يكون إلا صوتها في موشحات أبدعت في أدائها مثل موشح :لما بدا يتثنى وشمس العشية وأحسنت يا ليل... الخ.

في نهاية المساء توجهت نحو أحد المحلات التركية الذي يبيع سندويتشات الكباب والشاورما وكنت قد حددت موقعه من خلال تطبيق القوقل ماب الذي يساهم في تسهيل وتيسير سفرك إلى أي مكان في العالم من خلال إفادتك بكل المعلومات اللازمة حول مواقع مطاعم الحلال وأسعارها وآراء الزبائن في خدماتها. حصلت على كلمة سر الويفي الخاصة بالمطعم ورحت أتصفح بعض المواقع لاكتشاف المزيد عن تاريخ المدينة وبعض المعلومات المفيدة في ما تبقى لي من الرحلة، التهمت السندويتش مع عبوة صودا بثمن لا يزيد عن ستة يوروهات قبل أن أعود إلى الفندق وأخلد للنوم المبكر، استعدادا ليوم حافل، مباشرة بعد طلوع شمس الغد..

حاضر قرطبة الذي يتعطر بماضيها

Le véritable voyage de découverte ne consiste pas à chercher de nouveaux paysages ,mais à avoir de nouveaux yeux.

استيقظت صباح الجمعة 15 سبتمبر 2017 ونزلت لتناول الفطور الصباحي في المطعم، قبل أن أتوجه إلى جامع قرطبة الكبير، هذا الصرح الذي استمر في الوجود رغم كل محاولات الطمس والتعديل الذي طالته منذ سقوط المدينة سنة 1236.

وصلت إلى الجامع وعبرت فناء النارنج إلى داخل المسجد، كان المنظر مهيبا جدا منذ البداية، أعمدة وأقواس متشابكة وظلام مثير يعم المكان، تبدده بعض الثريات الخافتة الإضاءة، حيث يتعمد المسيحيون خلق هذه الأجواء المظلمة بداخل معابدهم لمزيد من الرهبة والخشوع.

منظر السياح وهم يتجولون بين أعمدة المسجد كان غريبا للوهلة الأولى، فمن الصعب أن تنزع من ذهنك صورة المسجد المفروش بالزرابي والحصائر ومنظر المصلين وهم راكعون أو ساجدون في جنباته. أما حين انطلق عزف آلة الأرغان العظيمة داخل الكنسية المزروعة في قلب المسجد منذ القرن السادس عشر، فذلك جعلني أسرع الخطى نحو المحراب بحثا عن القطعة المفقودة في المشهد لأقف على بعد أمتار منه عند قضبان حديدية وضعت على الأرجح لمنع من تسول له نفسه بإقامة الصلاة من جديد، بداخل هذا المحراب المزخرف الجميل، الحزين، الصامت، المسجون، أو كما قال أبو البقاء الرندي في مرثيته الشهيرة:

حيث المساجد صارت كنائس .. مافيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة .. حتى المنابر ترثي وهي عيدان

صحيح أن شارل الخامس قال لمهندسيه الذين بنوا الكاتدرائية داخل المسجد آنذاك : «لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه في أي مكان آخر وقضيتم على ما كان أثرا وحيدا في العالم»، وموثّق أن محمد إقبال الشاعر الهندي (لم تكن باكستان قد نشأت بعد) قد عاد للصلاة في الجامع سنة 1932 بعد ستة قرون من سقوطه (كأول مسلم يفعل ذلك) وكتب حينها قصيدة خاطب فيها المسجد بقوله:

إنّ أرضا أنت فيها ... لسماء للعيون
كيف لم يسمع آذانا ... أهلها منذ قرون ؟

الثابت أيضا أن صدام حسين صلى سنة 1974 في هذا الجامع بالذات رفقة الوفد المرافق له وقد كان حينها نائبا للرئيس العراقي، والراجح أن الملك فيصل في نفس الفترة تقريبا عرض على فرانكو شراء الجامع أو تفكيك الكنسية ونقلها خارج المبنى مهما كلف ذلك من ملايين الدولارات، إلا أن التاريخ قد قال كلمته منذ زمن، وقوانين الله في الكون وفي أسباب السقوط والنهوض لا تجامل أحدا، ولا تنظر إلى ألوان وصور وأديان أي كان، بل هي ثابتة ومعروفة كما كان الحال في 711 عند الفتح أو في 1236 عند سقوط قرطبة أو حتى في 1492 عند تسليم مفاتيح غرناطة وتلك هي دورة الحضارة.

لقد حطم المسيحيون بعد حرب الاسترداد معظم المساجد وبنوا على أنقاضها كاتدرائياتهم كما حدث في غرناطة، أو استعملوا جزءا من أبنية المسجد كما هو الحال مع الخيرالدا في إشبيلية، لكنهم في قرطبة عجزوا عن تحطيم الجامع بكامله، خصوصا وسط معارضة أهل المدينة أنفسهم لعملية الإزالة كما تقول كتب التاريخ.

زيارة جامع قرطبة كانت من أجمل ذكريات الرحلة وقد مرت الساعة داخله بسرعة محسوسة، وبدأ السياح بالخروج من المبنى كي يفسحوا المجال أمام بقية المجموعات السياحية للدخول بدورها وقضاء الوقت الذي تراه مناسبا وكافيا بالداخل (بعد دفع اليوروهات

العشر).

عند الخروج كانت الساعة التاسعة والنصف بالتوقيت الصيفي أي ما يقابله عندنا الساعة الثامنة والنصف وهو وقت مبكر جدا يضع أمامك متسعا من الوقت لمباشرة زيارة بقية المعالم في نشاط وهمة.

توجهت مباشرة إلى قصر الملوك المسيحيين بقرطبة وهو القصر الذي بني على أنقاض القصر الإسلامي بجوار نهر الوادي الكبير والذي لا يزال يحتفظ بطابعه الإسلامي في الكثير من جنباته على اعتبار أن أمهر البنائين في ذلك الوقت كانوا من المدجنين أو الموديخار الذين بقوا في المدن الإسلامية بعد سقوطها وهم الذين قاموا بتشييد القصر والكثير من المباني لصالح الأسياد الجدد أيضا.

رسم الدخول كان خمس يوروهات وهو مبلغ رمزي مقارنة بجمال الحدائق التي يضمها القصر. طبعا لا تنتظر أن تجد سحر الحمراء في هذا المعلم السياحي ولا حتى في آلكازار بإشبيلية، لأن الحمراء معلم فريد من نوعه في العالم وهو قد بقي قرنين كاملين في يد المسلمين بعد سقوط إشبيلية وقرطبة مما زاد في رونقه وتعتيقه لكن والحق يقال إن أجمل ما في قصر الملوك المسيحيين بقرطبة لمن يريد زيارته هو حدائقه وأزهاره وبرك المياه لأن البناء أقرب إلى الحصن الدفاعي منه إلى القصر المزخرف أو الفني الجميل.

بعد جولة لم تكون طويلة جدا في القصر خرجت للتمشي في

المدينة القديمة وبالضبط إلى الحي اليهودي أو ما يسمى بالخودرية والذي لا يتوقف عن الازدهار والتجمّل منذ مدة، حيث تنتشر به المطاعم والفنادق التي تقدم أطباقا وخدمات خاصة تتماشى والعادات اليهودية.

عدد اليهود في إسبانيا كلها يزيد ببضع آلاف عن أربعين ألفا وهو أقل قليلا من عدد المسلمين الإسبان المعتنقين للاسلام (المنحدرين من عائلات كاثوليكية إسبانية) ولا يكاد يقارن مع عدد المسلمين عامة في إسبانيا، والذي يتجاوز المليون ونصف المليون نسمة. ومع ذلك فهم منظمون بشكل جيد ضمن شبكة الأحياء اليهودية عبر مدن البلد، وقد تمكنوا بعد خمس قرون من سقوط غرناطة واكتشاف أمريكا من انتزاع اعتذار الملك الإسباني خوان كارلوس سنة 1992 عن الطرد والتهجير الذي مورس في حقهم بعد اندحار الوجود الإسلامي الذي عاشوا في كنفه طيلة ثمانية قرون.

اليوم ومن خلال تجولي في الحي اليهودي بقرطبة وزيارتي لكنيسهم المتاح دخوله بشكل مجاني (وهو عباره عن مصلى لم يبق منه الكثير من الآثار والشواهد) يمكنك وأنت السائح البسيط، أن تلاحظ كيف أن اليهود السفارديم يسعون للحصول على مكانة أكبر في المشهد التاريخي الإسباني يكاد يلتهم الوجود العربي الإسلامي، الذي وبالرغم من إهداءه لإسبانيا منظومة حضارية متكاملة إلا أنه لا يزال كبديل حضاري شريدا طريدا خارج كل حسابات السياسة والاقتصاد ولا

يجد من يدافع عنه ويروج له، بينما يعمل أبناء إسحاق بجهود موحدة في إعادة الاعتبار لوجودهم الحضاري في الماضي الإسباني بصفة عامة، وفي المستقبل الإسباني بصفة خاصة.

لقد فوجئت بعدد السياح من كل بقاع العالم الذين يقفون لأخذ صور تذكارية أمام تمثال الفيلسوف الأندلسي موسى بن ميمون أو موسى الثاني كما يعتبره اليهود (نسبة إلى أهميته بعد النبي موسى) بينما نجهل نحن كعرب ومسلمين أهمية إشعاعنا الحضاري في هذه الربوع عبر أسماء علماء وأدباء وأطباء ذاع صيتهم عند غيرنا، ورسموا لأوروبا طريق نهضتها نحو التطور والازدهار المادي المستمر إلى يومنا هذا.

كثيرا ما كنا نتغنى بشعور أو من غير شعور بالأندلس، ذلك الفردوس المفقود والحلم الموؤود، لكنني رأيت من خلال جولة سياحية بسيطة (لا أعتقد أنها كافية لتثبيت هذا الحكم) أن الفردوس الأندلسي لا يزال موجودا ومستمرا، وما على المرء إلا أن يعرف كيف يحييه ويطرق أبوابه من جديد. فكما عاد اليهود لامتلاك البيوت في مدن وبلدات إسبانيا من شمالها إلى جنوبها، يستطيع العرب أيضا أن يفعلوا ذلك (وليس يعوزهم مال أو جاه) عبر رسالة حضارية وثقافية واضحة المعالم، تعيد لأحياء غرناطة وقرطبة ورندة وغيرها عبقها الشرقي الساحر. ولو أن ذلك يمر أولا عبر التحرر من العقيدة الاستهلاكية والانفعالية التي زرعت فينا منذ مدة والتي تجعل بسطاءنا يشغلون

ليلهم ونهارهم بأخبار نوادي برشلونة ومدريد وتوهم أغنيائنا أن إسبانيا تبدأ وتنتهي في شواطئ بينيدورم وماربيلا وأليكانتي وكان الله في عون معتنقي الإسلام من الإسبان، الذي لا يرون أيا من مظاهر دينهم في تصرفات أثرياء العرب، ولا في سلوكات فقراءهم.

في منتصف النهار استلقيت على الحشيش خارج سور المدينة القديمة لأنعم ببعض الراحة مع تناول قليل من التمر والفواكه وكمية من الماء كي أحافظ على حاجة الجسد من الطاقة. من الجيد طبعا أن تتذوق الأطباق المحلية لأي مدينة تزورها وتجلس في مطاعمها الشهيرة ثم تنقل لأصدقائك شعورك بلذة تلك الأمكنة والأطباق، لكن ليس حين يساوي اليورو الواحد مائتي دينار كاملة. لذلك أصطحب معي قفتي الصغيرة إلى كل مكان، حيث لا أنسى أن أضع فيها قارورة ماء أملؤها عند كل نافورة هنا (وما أكثر النافورات في إسبانيا) وبعض حبات التمر، وطبعا أقوم بشراء الفواكه التي يبقى سعرها هنا في المتناول، بينما أقوم في المساء بالجلوس في مطعم للإخوة المغاربة أو الأتراك أو الباكستانيين من أجل رسم خطة اليوم الموالي بهدوء وتركيز في توفر تدفق عالي للانترنيت.

حين اشتدت حرارة وقت القيلولة عدت أدراجي إلى الفندق لآخذ حماما شبه بارد ثم أنطلق إلى محطة الحافلات لشراء تذكرة إلى مدينة إشبيلية والتي تبعد عن مدينة قرطبة بمائة وأربعين كيلومترا إلى الغرب وثمن التذكرة 12 يورو.

بعد العصر ذهبت للتجول في بعض المحلات الكبيرة بالمدينة كالكورتيس انقليز دون أن أنسى شراء بعض الأقمصة بأسعار مغرية من محل ديكاتلون المتخصص في الملابس الرياضية. نشاط التسوق مقرر رسمي في كل رحلة سياحية خارج الوطن لكنه لا يحتل من التجول والاكتشاف إلا مقدار ما يحتاجه الملح في صحن الطعام (علما أنه لا مشكلة لدي مع المسّوس).

في نهاية المساء وحين يتلطف الجو يخرج سكان قرطبة للتجول والتنزه في أزقة وساحات المدينة القديمة، ويجلسون في أفنية المنازل من أجل تناول عشاء خفيف على رقصات وأنغام الفلامينكو، تحيط بهم الأزهار والورود المتدلية من الشرفات والمتسلقة عبر الجدران، أما أجمل مكان يصلح للتمشي قبيل وقت العشاء أو بعده فهو قنطرة الوادي الكبير، أين تنعشك النسائم التي يحملها الوادي وتتذكر وأنت المولع والموجوع بما مضى من تاريخ الأندلس أن على هذه القنطرة أيضا كان يتمشى صاحب رائعة طوق الحمامة ابن حزم وصاحب كتاب تهافت التهافت ابن رشد ومستشار صلاح الدين الأيوبي صاحب كتاب دليل الحائرين الطبيب والفيلسوف الأندلسي موسى بن ميمون وبعض السيارات أيضا إلى وقت قريب قبل أن يتم منعها من المرور عبر الجسر..

غبار التاريخ العالق في نافذة المستقبل

Les voyages forment l'esprit et rectifient les idées..

بعد تجربة الأمس تبين أن فكرة الذهاب لزيارة جامع قرطبة أكثر جاذبية من فكرة النوم اللذيذ الذي ينتاب المرء في صباح العطلة.. على الساعة التاسعة إلا ربع كنت أستعد من جديد لدخول جامع قرطبة للمرة الثانية والأخيرة في هذه الزيارة الأندلسية الممتعة بعد أن غادرت فراشي قبل نصف ساعة صباح يوم السبت 16 سبتمبر 2017.

كان منظر المحراب الحزين في نهاية الجامع يجذب فضول جميع السياح لالتقاط صور له ومعه، رغم القضبان التي تمنع الوصول إليه. قبل سبع سنوات من الآن تحدثت تقارير صحفية عن مواجهات بين الشرطة الإسبانية وسياح مسلمين من بلد عربي في هذا المكان بالذات، بعد محاولتهم إقامة الصلاة في مكان لازالت الذاكرة الإسبانية تعتبره رمزا لاندحار الوجود الإسلامي عن شبه الجزيرة الإيبيرية.

لا شك أن الكثير منا ولو تفاؤلا، يسعى لاسترجاع ما فقدناه في هذه الأرض. والجميع يمنّي نفسه بحق العودة إليها وإقامة دولة الإسلام المجيدة في هذه الربوع، التي ترك فيها الوجود الثقافي العربي والإسلامي حضارة لا تمحيها السنون والقرون .لكن المشكلة أننا نفتخر بديننا ونبينا ورسالتنا أينما كنا وهذا مطلوب ومحمود، لكن هل يفتخر بنا ديننا ونبينا ورسالتنا ونحن على هذه الصورة من التخلف والتفرق؟ هل يمكننا تحرير المحراب بعودة جحافلنا إلى هنا وانتصارنا الحربي على الكفار، أم أن المحراب سيتحول طوعا إلى سكان قرطبة مثلا لو انتشر الإسلام كرسالة إنسانية يعتنقها الإسبان أو غيرهم بقناعة واقتناع؟ ثم كيف يقتنع هؤلاء بجدوى وشرف دعوانا، وأننا سنحمل لهم مجدا أضاعوه، ونحن لا تحملنا إليهم سوى قوارب متهالكة لا تكاد تتحمل حتى أضعف آمالنا في الوصول إلى الضفة الأخرى؟

كانت هذه الأسئلة تدور في رأسي وأنا أتأمل رمزا سيظل موجودا لتذكيرنا، بأن طريق العودة لا نسلكه إلا عبر التفوق العلمي والحضاري والصناعي والثقافي، وأن باقي الأسباب التي نتخذها عدا ذلك، لن تخرج عن نطاق العواطف والتمنيات، التي يبقى أنها تعطينا أحاسيس جميلة، لكن علينا في يوم من الأيام أن نستيقظ منها إن أردنا فعلا القيام بشيء مفيد للبشرية، دون الحاجة للتذكير بمآثرنا وأحقيتنا وبطولاتنا الماضية. فالعالم كما يقول الدكتور النابلسي يصلح للعيش بالكفر والعدل لا بالإيمان والظلم.

خرجت من جامع قرطبة بعد وداع أخير وذهبت لزيارة أحد المتاحف المعروفة بعد أن ترددت في زيارته يوم أمس، على اعتبار أنه مكان رهيب وقاس، ويمكن أن يفسد علي أجواء البهجة والمتعة التي أجدها في قرطبة. لكن تشجيع صديقي الصحفي فخار ابراهيم الذي سبق له وأن زار هذه الأماكن، زاد في كمية الفضول بداخلي لأدخل متحف «محاكم التفتيش» وهو متحف لا يغريك شيء بزيارته عدا رسم الدخول (3 يورو) واستغلال فرصة الفترة الصباحية المتبقية لي في قرطبة قبل مغادرتها مساء نحو إشبيلية.

المتحف متواجد قرب الحي اليهودي بالمدينة، ومجمل مساحته لا تتعدي الخمس غرف، لكن آلات التعذيب الموجودة بداخله تكشف عن وحشية لا مثيل لها، وتقودك إلى حقبة مظلمة من تاريخ القرون الوسطى الأوروبية، أين انقسمت القارة إلى كاثوليك وبروتيستانت وبدأت حروب الإبادة الدينية من الطرفين، والتي فهم الأوروبيون أخيرا أنه لا طائل منها لكن بعد أن ذهب ضحاياها عشرات الآلاف من الأبرياء.

محاكم التفتيش الإسبانية ذهب ضحيتها عدد من المسيحيين طبعا، لكنها تميزت بوحشيتها السادية ضد المسلمين واليهود بمن في ذلك من تحول منهم إلى الدين المسيحي. بداخل المتحف يمكنك مشاهدة أقفاص وكراسي مسننة وسيوف وأغلال حديدية وأدوات رهيبة مع شرح مفصل ومصور باللغات الخمسة، حول تقنيات التعذيب والقتل التي كانت تمارسه هذا المحاكم التي ظلت

محارقها موقدة في أوروبا إلى حدود القرن الثامن عشر.

أجواء من الرعب ستنتابك حتما داخل هذا المتحف صغير المساحة عميق التاريخ، والذي ستحمد الله عند خروجك منه على نعمة الإسلام والسلامة.

بالرغم من أن اللافتات بداخل المتحف لا تشير أبدا إلى الضحايا الموريسكيين المسلمين، إلا أن آخر لافتة تقرؤها قبل خروجك من الرواق المؤدي إلى خارجه، قد جاء فيها ذكر للضحايا اليهود (ربما لترسخ المعلومة في ذهن الزائر، أو هكذا خمن عقلي العربي المؤمن بنظرية المؤامرة).

عدت أدراجي إلى الفندق وحزمت جميع أمتعتي التي كانت خفيفة بعض الشيء، ووضعتها عند عامل الاستقبال كالعادة وخرجت للتسكع في آخر جولة لي بقرطبة.

الجميل في شوارع المدينة وساحاتها وجود عيون للمياه يشرب منها المارة، حيث يكفي أن تضغط برجلك على زر في الأرض لينطلق الماء بشكل عمودي إلى فمك، وتشرب من النافورة الصغيرة إلى أن ترتوي، مع إمكانية أن تملأ قارورة الماء الخاص بك، وهي القارورة التي لم تفارقني طيلة جولتي. أما فكرة الذهاب إلى المرحاض (الذي لا زال يشكل لدينا هاجسا يسكننا حتى بعد مغادرة الحدود) فهي من أسهل الأمور هنا على اعتبار أن كل المواقع السياحية تتوفر على هذه

الخدمة، إضافة إلى الترحيب والتفهم الذي ستجده لدى أصحاب المطاعم وقاعات الشاي حين تطلب منهم استعمال بيت الراحة، حيث ستجد بالداخل دون شك كل الراحة والنظافة المطلوبة ولو كنت على كرسي متحرك.

أثناء تجولي في المدينة القديمة وجدت بيتا للشباب، ودخلت لأسأل عن إمكانية المبيت في هذا النزل باستعمال البطاقة الدولية التي يمكن أن تحصل عليها من الجزائر بخمسمائة دينار جزائري وصورة شمسية من أي بيت للشباب، وهنا أخبرني العامل في الاستقبال أن السعر هنا للشباب دون 25 سنة هو 17 يورو والسعر العادي لمن هو فوق هذه السن هو 23 يورو لكن مع استظهار البطاقة يمكن أن تحصل على سرير بواحد وعشرين يورو.

لا أدري لما أردت أن اقتسم معكم هذه المعلومة، ربما لأنني في كل مرة ألتقي فيها بعضا من العاملين في مجال الشباب والرياضة يؤكدون لي فعالية هذه البطاقة خارج الوطن ويتباهون بصلاحيتها الدولية، رغم أن جميعهم أكدوا لي أنهم لم يستعملوها شخصيا.

كان علي أن أصلي قبل الذهاب إلى إشبيلية، لكني لم أجد في خريطة المدينة ما يشير إلى وجود مسجد أو مصلى في ضواحيها. دعك من أنك تتواجد في مدينة تحتضن أكبر مسجد في العالم الغربي، قد يسرّك ذلك لكنه لن ينفعك في هذه الحالة.

كنت قد لمحت غير بعيد عن الفندق حديقة صغيرة لا يرتادها الكثير من الناس وفكرت في أنها ستكون مناسبة لإقامة الصلاة بعيدا عن الازدحام وحركة الذهاب والإياب.

دخلت الحديقة بحثا عن مكان مناسب، لكن دهشتي كانت كبيرة حين وجدت مبنى صغيرا مربع الشكل وبه مدخل مقوس، اقتربت من المبنى فإذا هو مسجد صغير وبه قاعة للوضوء وأخرى للصلاة. كانت المفاجأة سارة جدا لي، خاصة وأن الإمام المغربي الشاب أخبرني أنه تأخر اليوم فقط، وفي العادة فالمسجد مغلق في هذا الوقت بعد صلاة الظهر. فأي صدفة أحسن من هذه؟

أقمت الصلاة وجلست مع الإمام للدردشة قليلا، قبل أن يلتحق بنا رجل ثالث يبدو أنه مغربي أيضا، وانطلقنا في حديث حميم ومتشعب حول إسبانيا والمغرب والجزائر ومستقبل الإسلام في أوروبا كأي مواطنين عرب وأشقاء لا تنهار بيننا الحدود السياسية والترابية إلا حين نكون خارج بلداننا الأصلية.

عرفت من الرجل المغربي والذي كان أكبرنا سنا أن هذه الحديقة كانت ثكنة عسكرية تم تحويلها إلى حديقة عمومية منذ سنوات، وأن هذا المسجد كان مخصصا لجنود الفيلق المغربي أو ما يعرف بفرقة «الريغولاريس» وهم جنود مغاربة خدموا في صفوف الجيش الإسباني في الريف المحتل أولا قبل أن يتحولوا إلى جنود الصفوة والقوة الضاربة التي استعملها فرانكو في الحرب الأهلية الإسبانية لسحق خصومه من الجمهوريين.

بعد تحويل الثكنة إلى حديقة تم استرجاع هذا المصلى من قبل الجالية الإسلامية بقرطبة لإقامة شعائر الصلاة.

قمت بالتقاط بعض الصور للمصلى ووضعها في قوقل ماب، كي يجدها من يزور المدينة في المرة المقبلة، ويودّ أداء الصلاة. ميزة مشاركة الصور والتجارب على النت ساعدتني كثيرا في إيجاد عناوين عديد المحلات والمواقع في الرحلة. وأحسن المعلومات التي أجدها تلك التي تضع صورا للأطباق ولائحة الأسعار في المطاعم أو لائحة أسعار المتاحف، لأنها معلومات مهمة، على ضوئها يتحدد مسار الميزانية والأولويات عند السفر. طبعا لا داعي للتذكير بأن هذه المعلومات ستجدها بكثرة في المواقع الفرنسية والإنجليزية بينما لن تجد في منتديات السفر العربية غير بعض المعلومات التي لا تفي بالغرض والتي تحتاج إلى إثراء أكبر وتوثيق أدق.

ودّعت الإخوة في المسجد وقصدت الفندق، كي أحمل أغراضي واتجه إلى رابع محطة لي في الرحلة، مدينة إشبيلية عاصمة إقليم الأندلس ورابع المدن الإسبانية أيضا من حيث عدد السكان بعد مدريد برشلونة وبلنسية.

انطلقت الحافلة من قرطبة على الساعة الرابعة والنصف لتقطع مسافة 140 كيلومترا على مدى ساعتين من الزمن ستكون لي فيهما فرصة الاستمتاع بإغفاءة صغيرة على الكرسي المريح لحافلات شركة ALSA الإسبانية..

تحت سماء إشبيلية.. بُعد واقتراب

L'homme qui veut s'instruire doit lire d'abord ,et puis voyager pour rectifier ce qu'il a appris.

وصلت إلى مدينة إشبيلية على الساعة السادسة والنصف تماما، نزلت في المحطة الرئيسية التي كانت تشهد زحاما معتبرا، وتوجهت نحو الشارع الكبير مشيا، تاركا الوادي الكبير على يساري، المدينة كبيرة جدا لدرجة أن قرطبة تبدو أمامها كما تبدو عين تموشنت أمام وهران.

اكتشفت فورا أنني ارتكبت خطأ كبيرا عند الحجز، لأن الفندق أو بالأحرى الشقة التي اكتريتها تبعد عن المدينة بخمسة كيلومترات كاملة. صحيح أنني طلبت من صاحب الوكالة السياحية في جويلية الماضي أن يحجز لي في الفنادق التي تكون قريبة من المدينة القديمة حتى يكون الأمر سهلا للتنقل والتجول في المواقع التاريخية الرئيسية، لكني لا أدري كيف قبلت عرضه بأن أكتري شقة من غرفتين بسعر

غرفة صغيرة في نزل، مع أنني لا أحتاج إلا لسرير للنوم، لن أعرف حتى لون أغطيته حين أرتمي فوقه آخر اليوم.

استغرق مني الوقت ساعتين كاملتين من التنقل مشيا وعبر مترو الأنفاق قبل أن أقف أمام باب الفندق الذي انفتح بابه الزجاجي أمامي عند وصولي، لأجد شابا في الاستقبال يبدو أنه طالب جامعي ويعمل هنا في أوقات فراغه.

البناء الضخم عبارة من مجموعة من الشقق، ومبني على طريقة البناءات الجاهزة التي يمكن إنشاؤها وتفكيكها بسهولة عند الحاجة. وجدت بانتظاري غرفتان ومطبخ بكامل تجهيزاته، وحمام واسع وموقف سيارات مجاني، وهدوء تام داخل وخارج الفندق. باختصار، كل ما لا أحتاجه في عطلتي سيتوفر لي في هذين اليومين بإشبيلية.

حاولت استعادة معنوياتي بأخذ حمام دافئ خفيف قبل أن أخرج لاستكشاف المكان الذي عرفت أنه عبارة عن منطقة فسيحة، تنتشر فيها المساحات التجارية الكبرى والمولات بمختلف علاماتها. هذه الأمكنة في أوروبا بعيدة عن المدن وخالية من الحركة وتوحي بانعدام الأمن، لكن ما يسري عندنا ليس بالضرورة ما يسري عند غيرنا.

ذهبت إلى أحد هذه المساحات التجارية الكبرى واشتريت بعضا من الجبن وشرائح السمك والعصير لتناولها كعشاء ينسيني وحشة المكان الخالي الذي أتواجد به، واستلقيت في السرير الواسع

استعجل تسرّب النعاس إلى جفوني، حتى استيقظ في اليوم الموالي للذهاب إلى مدينة إشبيلية من جديد.

صباح الأحد 17 سبتمبر2017 في أوروبا مشابه لجمعة رمضان في الجزائر، فالمرء يجد نفسه وحيدا يتمشى في الشوارع كأنه الناجي الوحيد من كارثة طبيعية أهلكت كل سكان الأرض.

توجهت إلى ساحة إسبانيا الشهيرة، هذا المعلم الذي بني سنة 1929 بمناسبة المعرض الدولي الذي ربط بين شبه الجزيرة الإيبيرية وأمريكا الإسبانية. إنها ساحة ضخمة يحيط بها بناء نصف دائري وفيه اصطفت مقاعد من المرمر عددها ثمانية وأربعون مقعدا بعدد المقاطعات الإسبانية وفوق كل مقعد لوحة ترمز لأهم حدث تاريخي وقع في عاصمة المقاطعة، غني عن الذكر أن مثلا أن مقاطعة غرناطة وضع في مقعدها صورة تسليم مفاتيحها الشهيرة، والتي تجمع أبو عبد الله الصغير رفقة الملكان فيرناندو وإيزابيلا.

أخذت كامل وقتي للوقوف أمام كل لوحة كما يفعل كبار المهتمين بالفن، ثم غادرت الساحة متجها نحو آلكازار أو قصر إشبيلية الشهير والذي يقع بالقرب من كاتدرائية إشبيلية، الأكبر من نوعها في إسبانيا ومن بين أكبر الكاتدرائيات في العالم. كان الطابور الذي ينتظر أمام مدخل القصر طويلا ومشكلا من أفواج طويلة من السياح، لكن الجميع يحترم مكانه في الصف وهو أمر يخفف عنك عناء الانتظار الطويل ويطمئن عقليتك المتشككة بأن لا أحد سيأخذ دورك لأن

لاشيء يدمر نظام الطابور كانعدام الثقة.

تحركنا في يسر وسرعة بعد فتح الباب الرئيسية للقصر، ووجدت نفسي أهرول إلى الداخل بعد دفع رسم الدخول (10 يورو) لالتقاط بعض الصور بداخل ساحات القصر وقاعاته، قبل أن تكتظ بالأعداد الهائلة للسياح الذين لابد أن يزوروا هذا المكان إن هم أرادوا إقناع أصدقائهم وأنفسهم أنهم حقا كانوا في إشبيلية.

ألكازار مشتقة من اللفظ العربي «القصر» وتطلق في إسبانيا على كل بناء فخم. الزائر لقصر إشبيلية الذي بني على أنقاض الحصن الإسلامي بعد سقوط المدينة سيلاحظ ذلك التنوع في الطبوع الهندسية بين عربي وقوطي وطابع عصر النهضة. أما أشهر قاعة في القصر دون شك فهي «قاعة السفراء» المزينة أسقفها بكل ما يخطر على بالك من نقوش مذهبة، وأين استقبل بين جدرانها المغامر الجنوي كريستوف كولمبس من طرف الملكان فرناندو وإيزابيلا حيث منحاه الموافقة على تمويل رحلته نحو الهند، لتبدأ من هذا المكان بالذات قصة ولادة العالم الجديد.

بعد اكتشاف الأميركيتين عام 1492، أصبحت مدينة إشبيلية مركزا اقتصاديا للإمبراطورية الإسبانية تصب فيه الثروات القادمة من المستعمرات الأمريكية الجديدة، وشهدت خلال القرن السادس عشر نموا عمرانيا كبيرا ما تزال آثاره قائمة. فقد أصبحت مركزا متعدد الثقافات مما ساعد على ازدهار الفنون فيها في الفترة المعروفة

باسم «القرن الذهبي» في التاريخ الإسباني.

بالعودة إلى الحدائق ونافورات المياه داخل القصر فمناظرها لا تمل منها العين أبدا، لن أقول إنها ذكرتني بحديقة التجارب في الحامة ولكنها نسخة مصغرة منها لكن مع اعتناء وفخامة أوضح.

استغرقت جولتي بالقصر ساعتين كاملتين ولو أن ذاتيتي المفرطة لازالت تجادلني في أن أحسن القصور وأبدعها في إسبانيا يبقى الحمراء دون منازع، لا في الجمال ولا في الموقع ولا في الوقع على الذات والروح والذاكرة.

القصر الذي بني بعد سقوط المدينة في يد ملك قشتالة يعج بالزخارف الإسلامية والنقوش العربية، لأن البنائين مرة أخرى كانوا من الموريسكيين الذين تركوا بصماتهم في القصر، وكان ذلك الطراز أجمل ما توصلت إليه هندسة ذلك الزمن.

خروج السياح من هذا المعلم السياحي الفريد يكون من باب آخر لتفادي الازدحام ومباشرة بعد خروجي توجهت مرة أخرى إلى ساحة إسبانيا نصف الدائرية ومنها دخلت حديقة ماري لويز العظيمة التي تشبه حقا حديقة تجاربنا هذه المرة، ووجدتها عامرة بالسياح وسكان المدينة معا، خاصة في يوم إجازة كهذا.

لمحت بداخل الحديقة الفسيحة مبنىً جميلا بطراز أندلسي خالص، لاعجب أن يكون هو متحف الأندلس ذاته الذي ارتسم على

خريطة هاتفي النقال ليلة أمس حين كنت أخطط لبرنامج اليوم.

بداخل المبنى الذي لا يتجاوز رسم دخوله ثلاثة يوروهات، أجنحة تعرض كل ما تعلق بالثقافة والهوية الأندلسية من ألبسة ومهن وعادات وتقاليد وأثاث البيت وألعاب الأطفال والملابس وأدوات المطبخ.. الخ وقد أعجبتني جدا طريقة عرض تلك التحف التي يخيل للمرء أنها تنظف يوميا وتسلط عليها إضاءة مدروسة تبين كل تفاصيلها، وتحسرت على المعروضات الموجودة في بعض متاحفنا عبر الوطن، والتي يعلوها الغبار أحيانا أو تلتصق بها الأوساخ من فرط الإهمال المقصود أو غير المقصود.

تجربتي في قرطبة علمتني أن أبحث في الخريطة عن مسجد المدينة باللفظ الإسباني «مزكيتة» مما جعلني أتوجه بسهولة نحو مسجد إشبيلية الجامع بعد وقت الظهر، يتواجد المسجد قرب محطة لحافلات النقل داخل المدينة، وهو يبدو من الخارج كمتجر مهجور بستائر حديدية مسدلة لولا وجود الباب الخشبي المزخرف الذي يدخل منه المصلون.

فتح لي أحد الشباب الملتحين الباب ودخلت للصلاة وأخذ قسط من الراحة في مصلى بدا لي صغيرا جدا مقارنة بضخامة المدينة. دعاني الشاب بعد الصلاة لتناول الغذاء برفقته في قبو المصلى ونزلت الأدراج إلى الأسفل لأجد طاولة يجلس إليها بعض الإخوة. عرفتهم بنفسي وعرفوني بأنفسهم واحدا بعد آخر. إنهم من سكان

المدينة المشرفين على أنشطة المسجد،أحدهم إسباني مسلم منذ سنة 2007 وآخر أكبر سنا من مدينة تطوان والثالث شاب مغربي أيضا يسكن إشبيلية ويبدو أنه من طلبة العلم. لا أدري إن كان طبق اللحم الممرّق الذي دعوني إليه شهي جدا، أو أن اشتياقي للمرق جعلني أستلذّ الطبق، لكن الغذاء كان من أحسن ما تناولت منذ غادرت وهران قبل أسبوع.

أخبرني الجماعة أنهم كانوا يكترون المحل بمبلغ ستمائة يورو شهريا، وأنهم كانوا يجددّون الإيجار في كل مرة ويجدون صعوبة في توفير المبلغ. إلى أن جاء فريديريك كانوتي اللاعب الدولي المالي إلى فريق بيتيس إشبيلية وكان من المواظبين على الصلاة هنا، وهو الذي اشترى هذا المحل من حر ماله ووقفه للمسلمين منذ ذلك الوقت.

تبادلت عناوين الفيسبوك رفقة أخينا الإسباني المسلم لكني لاحظت بعد مدة للأسف، أن الكثير من منشوراته كانت موجهة ضد الشيعة والصوفية وأهل البدع والضلالة حسب فهمه وقد حسبت أن المسلم الأوروبي مطالب بأولويات دينية أخرى، تقع مثل هذه المنشورات الفيسبوكية التي يضعها أخونا في آخر قائمتها.

توجهت بعد أن ودعت جماعة المسجد إلى أهم معلم في إشبيلية، لكن رسم الدخول إلى الكاتدرائية كان عشر يوروهات كاملة ونفس المبلغ يجب أن يدفع حين تود تسلق منارة الخيرالدا التابعة للكاتدرائية أو هكذا قرأت في اللافتة التي علّقت عند مدخل أشهر

معلم في المدينة يقصده الزوار من كل حدب وصوب. وقفت لبعض اللحظات متمعنا في ماكُتب، لكن وبما أنني أزور المدينة لأول مرة فلا يجب أن أمر على مكان كهذا دون دخوله، ثم إنني لا أستطيع أن أزور الكاتدرائية دون أن أصعد لقمة المئذنة وأشاهد بداخلها ذلك الممر المرصوف الذي كان المؤذن يصعده على ظهر دابته لنداء الآذان. لذلك كان قراري غير قابلا للنقض بإخراج ورقة العشرين يورو من جيبي ونسأل الله التعويض فالمرء لا يخسر أبدا عند أول تجربة كما يقال.

أكثر شيء يخطف الأبصار داخل الكاتدرائية هو لوحة مجسمة من حياة المسيح (في ديانة المسيحيين) مصنوعة من الذهب الخالص بطول أربعين مترا، وضعوها داخل قفص حديدي ضخم (يبدو أنها تختزن كمية كبيرة من ذهب الأمريكيتين الذي استحوذ عليه الإسبان في بداية غزوهم للعالم الجديد) وغير بعيد عن اللوحة يرقد جثمان مهندس هذه الرحلة كريستوف كولومبس تحت نفس السقف. أتذكر أن أول مرة سمعت فيها بهذا الاسم كان في سنتي الإبتدائية السادسة من خلال رسوم متحركة تتحدث عن هذا الشاب الجنوي المغامر الذي انطلق بسفنه نحو الهند ليكتشف أمريكا بالخطأ في نفس سنة سقوط غرناطة، وأتذكر أنني منذ ذلك الوقت لم أكن أتعاطف كثيرا مع هذا المكتشف، الذي رافقه في الرسوم المتحركة بحار عربي اسمه موسى الريّاش، ولا أعرف إن كان في ذلك جزءًا من الحقيقة، علما أن الكثير من الشواهد اليوم تؤكد أن أقواما كثيرة ومنهم العرب قد وصلوا

إلى أمريكا قبل مجيء السي كولومبس هذا.

بعد جولة تحت أسقف هذه الكاتدرائية الشاهقة العلو، اتجهت مسرعا نحو المئذنة الشامخة التي تشق سماء المدينة عموديا بطول أكثر من تسعين مترا والتي يتم ولوجها من داخل الكاتدرائية، وبدأت الصعود رفقة مجموعة من السياح كانوا يبدون اندهاشهم من وجود مبنى بهذه الصفة قبل تسعة قرون من الآن.

أجمل منظر يمكن للمرء أن يراه لمدينة إشبيلية القديمة هو من على هذا البرج، والذي سمي بالجيرالدا نسبة للتمثال المنتصب في الأعلى والذي يدور مع حركة الرياح منذ 1568 واسمه الخيرالديو أو دوارة الرياح.

البرج في الأصل مئذنة لجامع الموحدين بناه أبو يوسف يعقوب المنصور سنة 1197، ويقال إن زلازل مدمرة تعاقبت على المدينة ساهمت في تدمير قمتها، قبل أن يحولها الإسبان بداية القرن الخامس عشر إلى الشكل الذي هي عليه الآن.

من على قمة برج الخيرالدا أمكنني رؤية أسطح منازل إشبيلية وقد تحولت بعضها إلى مسابح وحدائق ومطاعم راقية كما رأيت أجراسا ضخمة منتصبة في أعلاه يصعب التصديق والإقرار أنها تعتلي مئذنة في الأساس.

قضيت وقتا ليس بالقصير في قمة الخيرالدا لالتقاط أنفاسي

والتمتع برؤية مزيد من المناظر في الأسفل قبل الخروج من المبنى والعودة إلى شوارع إشبيلية العامرة في المساء.

لا أعرف لماذا أحجمت عن الدخول إلى برج الذهب الذي ينتصب كبرج شامخ على ضفة نهر الوادي الكبير، ويشكل رفقة الجيرالدا ثنائية أيقونة إشبيلية لكل الأوقات. واكتفيت بالذهاب لمحطة حافلات صغيرة غير بعيد عن ساحة إسبانيا لشراء تذكرة الذهاب غدا إلى مدينة رندة في مقاطعة مالقة.

كان ذلك إشارة لي على انطلاق العداد العكسي لنهاية رحلتي ودخولها مراحلها الأخيرة رغم أن مازال أمامي المزيد لأتعلمه وأكتشفه..

إشبيلية وجه إسبانيا القديم.. والجديد أيضا

Voyager est un triple plaisir : l'attente ,l'éblouissement et le souvenir

بعد الحصول على تذكرة الحافلة المنطلقة إلى رندة في اليوم الموالي، ذهبت للجلوس على ضفة نهر الوادي الكبير والتمتع بمناظر السفن التي تنزلق على سطح النهر جيئة وذهابا، وعلى ظهرها سياح جاؤوا لاكتشاف المدينة من خلال هذا المجرى المائي الذي يزيّنها ويزيد في جمال جوها المنعش. من حظ السكان في أوروبا أن تطل مدنهم على أنهار مائية جميلة ودائمة الجريان، بينما لازالت المدن عندنا تتوسع في قلب أودية نائمة تستيقظ على حين غرة لتجرف معها الأخضر واليابس.

لم أنس في طريقي أيضا زيارة واحدٍ من أجمل وأفخم الفنادق في إسبانيا وربما في العالم كله؛ فندق ألفونسو السادس الذي بُني في العشرينات على الطراز النيومو ديخاري الأندلسي، والذي يعتبر

جوهرة المعمار في زمانه. لا داعي للقول أن الفنادق هنا مهما كانت قيمتها فإن قيمة الداخل إليها أكبر وأهم، لأنها في النهاية بنيت من أجله، ولذلك كان ولوجي إلى الداخل سهلا جدا ودون أن يسألني أحد من أين جئت وإلى أين تغدو.

لاحظت بالمناسبة أن المباني في إشبيلية تتميز ببذخ هندسي متكلف، وتصميمات معمارية فريدة، حيث تتزين واجهتها بأشكال وألوان وزينة مثيرة للاعجاب والانتباه، أما جذور كل ذلك فتعود إلى بدايات الاكتشافات الجغرافية الأمريكية التي بدأت من هذا المكان، والتي جعلت من المدينة مركزا يتحكم في دواليب التجارة مع العالم الجديد. وقد أعطاها موقعها على ضفة الوادي الكبير (تبعد بثمانين كيلومترا عن مصبه في المحيط الأطلسي) حصانة طبيعية جعلتها في مأمن من غارات الأساطيل المعادية (الإنجليزية بالخصوص) وما تسمية برج المراقبة العربي الشهير في إشبيلية ببرج الذهب إلا دليل آخر على كمية المعادن الثمينة التي وجدت طريقها إلى المدينة وسكانها بداية من القرن السادس عشر، والبرج اليوم عبارة عن متحف بحري، بينما يعد ميناء إشبيلية الميناء النهري الوحيد في إسبانيا اليوم.

الوادي الكبير هو اسم خامس أطول نهر في بلاد الأندلس، وقمة مولاي الحسن هي أعلى قمة جبلية بشبه الجزيرة الإيبيرية كلها، فيما تعتبر قمة المنصور أعلى القمم في وسط إسبانيا. التأثير العربي ظل

يسكن الماء والحجر والانسان والتاريخ والجغرافيا واللسان الإسباني رغم كل الأحداث المأساوية التي عرفتها الأندلس لتطهير هذا الوجود العربي والإسلامي. لقد أرادت الإمبراطورية الإسبانية حاملة لواء المسيحية في العالم أن تمحو هذا الوجود بأكثر الطرق قسوة ومأساوية، لكنها لم تنجح إلا بمقدار ما يجعل الأندلس كمريض الزهايمر، الذي يرى نفسه في المرآة ولا يعرفها، بينما يعرفه الآخرون فيستمر موجودا لديهم باسمه وأصله ومكانته.

عرفت إشبيلية سنة 1992 حدثا مهما، جعلها تستقبل في سنة واحدة أزيد من أربعين مليون زائر، بمناسبة المعرض الدولي الذي نظم بها بعد مرور خمسمائة عام على اكتشاف أمريكا. لقد أعطى هذا المعرض الذي شاركت فيه أكثر من مائة دولة دفعة قوية للتنمية غيرت من شكل عاصمة إقليم الأندلس، حيث استفادت من طرق وشبكات سكك حديدية سريعة نحو العاصمة مدريد، وتوسيع للمطار، وتهيئة مجرى نهر الوادي الكبير مع تشييد ستة جسور كاملة تعبر النهر، إضافة إلى منشآت قاعدية أخرى زادت من شهرة المدينة قاريا ودوليا وجعلتها تتصدر أغلفة المجلات والنشرات الاخبارية آنذاك (إضافة إلى الألعاب الأولمبية ببرشلونة).

مثل هذه المناسبات الضخمة، تعطينا فكرة عن الفرص التي يمكن أن نجنيها من تنظيم تظاهرات دولية ندعو إليها أناسا من خارج الوطن، لا كي نثقل كاهل الخزينة العمومية بمزيد من المصاريف، بل من أجل

أن نستثمر كل ذلك بحكمة في جلب مزيد من الاستثمارات والأرباح. وأتذكر هنا إجابة أحد الأصدقاء الذي سألته عن التغيير الذي لاحظه كمواطن في عزّ تظاهرة عاصمة الثقافة الإسلامية بتلمسان حيث أخبرني مازحا أن أهم ما تغير هو سعر القميص الذي كان يقتنيه بألف دينار آنذاك وأصبح بعد إقامة التظاهرة بألف وخمسمائة.

في نهاية المساء ركبت ميترو الأنفاق عائدا إلى حي كاماس في الضاحية الغربية للمدينة، أين تتمشى بمفردك بمحاذاة الطرق السريعة دون أن تصادف شخصا واحدا. وصلت إلى فندقي واستسلمت لنوم سريع هذه المرة، على أمل أن أستيقظ مبكرا صباح الإثنين 18 سبتمبر 2017 للمغادرة في حافلة الواحدة زوالا نحو مقاطعة مالقة المجاورة. حزمت أمتعتي ووضعتها عند موظف الاستقبال قبل أن أتوجه خارج الفندق راجلا نحو المساحات التجارية الكبرى المحيطة به، أين تنتشر محلات بيع الأثاث والسيراميك والسيارات والألبسة وكل أنواع السلع التي تخطر على بال. زرت مرة أخرى المحل الضخم للوازم الرياضية (ديكاتلون) لشراء بعض المقتنيات، فمن سُنّة المسافر عندنا أن يعود ببعض الهدايا من سفره حتى لو كانت نفس المشتريات متوفرة بالجزائر، لكن مجرد حملها في حقيبة السفر يعطي لها نكهة وطعما آخر عند الوصول لمستحقيها في أرض الوطن.

أصبحت الآن مثقلا بثلاث حقائب وقفة صغيرة، لكن الحمولة لم تكن تزيد عن المعقول، وكل المحتويات كانت مرتبة بشكل مناسب،

ورغم أنني أعاني من أعراض الفوضى وسوء التنظيم في حياتي اليومية، إلا أن هذه العطلة كانت فرصة لي للتحلي بشيء من الجدية في موضوع ترتيب الأمتعة.

صحيح أنني تجولت قليلا في شوارع إشبيلية الرئيسية التي أحسست أنني لم أزرها بما فيه الكفاية، لكن عزائي دائما في جملة «خلّي باش تولّي» فمن المستحيل أن نكتشف كل ما تحويه هذه الحاضرة من كنوز هندسية وفنية وجمالية إلا إن عدنا إليها من جديد في مناسبة أخرى.

قبل السفر إلى إسبانيا حاولت أن أتعلم بعضا من مفردات هذه اللغة، كما قمت بتحميل عدد من الأشرطة الوثائقية الإسبانية كي أدخل في أجواء السفر قبل بدايته، وطبعا كان النصيب الأكبر من التحضير هو قراءة أكبر عدد ممكن من الكتب حول الأندلس ماضيا وحاضرا، واكتشفت من خلال ذلك عديد الأشياء التي كنت أجهلها، ومنها أن المدن السياحية الإسبانية المعروفة ليست الوحيدة التي تغري المسافر بزيارتها، بل إن هناك مجموعة من البلدات الأندلسية الصغيرة ليست أقل جمالا وإثارة من الحواضر الكبرى، ويمكن أن يقضي فيها السائح أوقاتا جميلة.

عدد كبير من هذه البلدات أو القرى البيضاء (نسبة للون الأبيض الذي يكسو منازلها) تتواجد بمقاطعة مالقة أما أروعها على الإطلاق كما بدا لي فهي : رندة..

رندة.. العلو والعمق

A man does not belong to the place where he was born ,but where he chooses to die

قبل ست سنوات من الآن عملت في قسنطينة ضمن فريق إنتاج تلفزيوني، وكان معنا مدير تصوير شاب من إسبانيا. المصور أعجب كثيرا بالمدينة وقال لي أنها تشبه بشكل كبير بلدة صغيرة في جنوب إسبانيا لكنه نسي اسمها.

بحث صغير في الأنترنيت مكنني من اكتشاف هذه المدينة التي بنيت على صخرة كبيرة وتطل على واد عميق تماما كمدينة الجسور عندنا، لولا أن قسنطينة أكبر بكثير ولا مجال لمقارنة المدينتين من حيث الحجم.

كنت أتشوق لزيارة هذه البلدة في يوم من الأيام، إلى أن يسّر الله لي هذه الرحلة أين اكتشفت قبل الوصول إلى بلدة رندة أن هذه

الأخيرة هي مسقط العالم العربي وصاحب أول محاولة طيران في التاريخ عباس بن فرناس، كما ينسب إليها الشاعر أبو البقاء الرندي صاحب المرثية الشهيرة للأندلس والتي نحفظ جميعا أولى أبياتها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان .. فلا يغرن بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول .. من سرّه زمن ساءته أزمان

علما أن أبا البقاء توفي قبل قرنين من سقوط رندة في يد فرناندو وايزابيلا سنة 1485 وأن القصيدة التي نظمها ويكاد لا يشتهر بسواها، جاءت لاستنصار المرينيين ضد التوسع المسيحي في الشمال، بعد سقوط قرطبة وإشبيلية (صحيح أن من يقرأ قصيدته بكاملها يظنها تصف ما وقع للمسلمين غداة سقوط غرناطة بل ونحن من الهوان ما يجعلها تصف حالنا اليوم دون مبالغة).

ثمن التذكرة من إشبيلية إلى رندة لا يتجاوز 13 يورو، والطريق إليها يعبر مناظر طبيعية لا تخلو من انتشار منازل المزارعين هنا وهناك، مع بعض القرى الصغيرة التي تستقر في سفوح الجبال آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغدا من الأراضي المزروعة المجاورة.

عند الاقتراب من موقع البلدة بدأت الحافلة في تسلق طريق مليئة بالمنعرجات، وكنت أستمتع أحيانا برؤية المناظر عبر النافذة وأستعجل تارة أخرى لحظة الوصول، عبر متابعة سير الحافلة على شاشة هاتفي الذكي.

وصلت قبل مغيب الشمس إلى رندة، وكانت محطة الحافلات صغيرة وتقع تحت بناية سكنية من خمس طوابق ربما كانت الأعلى في كل البلدة. توجهت مباشرة إلى الفندق لوضع الأمتعة وخرجت في جولة صغيرة في الجوار.

كانت الشمس تقترب من موعد المغادرة عند وصولي للجسر الجديد كما يسمى، والذي يعتبر أهم معلم برندة، ومنه يمكنك أن تطل على أخدود عميق يقسم المدينة إلى نصفين.

البلدة هادئة جدا والإضاءة فيها تعطيك جوا من الرومانسية والنشوة لم أجده في أي مدينة قبلا. تمشيت دون هدف عبر شوارع البلدة الضيقة التي أشعرتني أنها تحتضن هذا الزائر لأول مرة بشيء من الألفة والحميمية والاهتمام. والحقيقة أنني أحببت رندة حتى قبل أن أراها لكن من يراها سيحبها أكثر دون شك، فرندة لا تطلب منك أن تكون إرنست هيمينغواي شخصيا حتى تقع في غرامها (سبق لصاحب رواية الرجل والبحر أن أقام بها مدة من الزمن).

تنام البلدة كما يبدو باكرا جدا (بالنسبة لموقع سياحي) ووجدت نفسي بعد مرور زمن لم أدري كيف مر بسرعة، أني شبه وحيد أتجول في قرية حان الأوان أن أطرق باب أحد مطاعمها من أجل تناول وجبة العشاء. لم تكن المسافة بعيدة بين الفندق ووسط المدينة ومطعم الحلال الذي توجهت إليه لالتهام بسطيلة مغربية شهية قدمتها لي صاحبة المطعم التي كانت تعمل رفقة زوجها الباكستاني، وكان

أولادهما يلعبون في أرجاء المطعم المتواضع. ارتحت كثيرا لهذا الوضع شبه العائلي، بعد معاناتي كسائح متشرد في إشبيلية، بسبب بعد المسافة وتعب التنقل.

عدت إلى الفندق واستلقيت على فراشي منتظرا شروق شمس الغد حتى أباشر جولتي الصباحية، واستفدت قليلا من مراجعة بعض المواقع السياحية على الانترنيت عبر الهاتف، حتى أدرك الخلفية التاريخية والإنسانية للأماكن التي سأزورها.

استيقظت صباح الثلاثاء 19 سبتمبر 2017 في خفة ونشاط ونزلت إلى مطعم النزل.كان الفندق صغيرا ومتواضعا وقد زينت جدرانه بصور من كل الأحجام والألوان لأبطال مصارعة الثيران والثيران ذاتهم، وكل ما تعلق بهذه الرياضة الإسبانية المثيرة للجدل.

لا تفتخر رندة بموقعها الطبيعي الاستثنائي في الجغرافية الأندلسية وحسب، بل تفتخر أيضا باحتضانها لأقدم حلبة ثيران في إسبانيا كلها تم تشييدها 1784 ولعل هذا ما يفسر تحول النّزل إلى ما يشبه المتحف المصغر لرياضة مصارعة الثيران، من خلال الملصقات والصور التي تضج بها جدرانه. علما أن أكثر من أربعمائة حلبة عبر إسبانيا تشهد ممارسة هذه النشاط الجماهيري عدا حلبات إقليم كتالونيا وجزر الكناري. بينما لا يتواجد في القارة الإفريقية إلا حلبتان لمصارعة الثيران الأولى في وهران بحي الأمير خالد، والثانية بطنجة المغربية.

قاعة المطعم كانت ضيقة جدا لا تحوى سوى أربع طاولات صغيرة من الأثاث العتيق وبجوارها كان هناك مطبخ صغير وجدت نفسي مضطرا لدخوله وتحضير فطوري بنفسي، بعد تأخر صاحب النزل عن المجيئ، كما قمت بتقديم المساعدة لبعض النزلاء من الأمريكان (من كبار السن) ظنوا أنني المكلف بهذه المهمة، ولم أمانع في تقمص الدور لبعض الوقت.

خرجت بعد الإفطار في جولة صباحية قبيل شروق الشمس بقليل وكان الجو منعشا جدا، توجهت إلى حافة البلدة التي تستقر فوق صخرة ضخمة ورحت أطل من فوق هذه الشرفة الطبيعية على مشهد ريفي بديع.

من المعروف أن السائح الحالي لا يرى المناظر بعدسة عينيه بقدر ما يحب مشاهدتها من وراء عدسة الكاميرا لتخليد ما يعتقده لحظة مهمة أو معلما جميلا أو منظرا طبيعيا جديرا بالتصوير. صحيح أن الصورة قصيدة دون كلمات وحكاية دون سرد تحبس شيئا من الزمن في لحظة وتثير الحنين لماض قد لا يعود، لكن هل يجعلنا ذلك التوثيق المستمر لكل لحظاتنا في الأمكنة الجديدة أكثر إحساسا بها أم أنه يوهمنا بسعادة مكذوبة نتقمّصها دون شعور بحقيقتها؟ يخيل لي أحيانا والله أعلم أننا كنا نعيش أجمل اللحظات بدون أن نوثقها، وأصبحنا الآن نوثق أجمل اللحظات بدون أن نعيشها..

ستجد في المدن الإسبانية تماثيل حجرية لبعض الشخصيات

المهمة، في مفترقات الطرق أو في الحدائق العامة، منتصبة فوق منصات عالية. لكنهم يضعون بعض التماثيل أيضا لشخصيات معاصرة قد تجدها واقفة بجانبك في ساحة عامة (لاحظت ذلك في ألمرية أيضا) أو تتفاجئ بجلوسها على مقعد في وسط حديقة عمومية إمعانا في جعلها أقرب إلى الناس ومن تلك التماثيل مجسم لشخصية أندلسية معاصرة شهيرة جدا في هذه الربوع، وتحمل اسمها العديد من الساحات والشوارع عبر المدن الأندلسية التي زرتها، وقد وجدت تمثاله واقفا كما يقف الراجلون والمتجولون في ساحة البلدية برندة. إنه الشهيد بلاس إينفانتي.

قصة هذه الشخصية مثيرة جدا لم أسمع بها في أي مقرر تاريخي عندنا، رغم أهميته المصيرية في تاريخ الأندلس المعاصر، الذي أرى مرة أخرى أننا لا نحسن سوى التغني بلوعة فراقه دون البحث في بدائل بعثه من جديد. فقد كان كان إينفانتي واحدا ممن أحيوا الآمال في بعث القومية الأندلسية من رماد التاريخ، لكن الرصاصات التي أنهت حياته لم تسعفه ليرى تجسيد ما ناضل من أجله ولو أنها خلدته للأبد أبا دون منازع للهوية الأندلسية.

أصيل بلدة قشريش بمقاطعة مالقة ناضل طيلة بداية القرن العشرين في جو مشحون بالتقلبات السياسية والإيديولوجية في إسبانيا من أجل قومية أندلسية متصالحة مع جذورها الإسلامية وهويتها العربية، وكان هو من اقترح العلم الأندلسي الحالي الذي يتكون من حاشيتان

خضراوان تتوسطهما حاشية بيضاء، استوحاه من راية الموحدين التي تم رفعها فوق مئذنة إشبيلية بعد انتصارهم في معركة الأرك.

أسلم بلاس إينفانتي لدى زيارته للمغرب سنة 1924 (رغم إنكار عائلته لذلك) ولم يكن من المتعاطفين مع الكنيسة لدورها المقيت في حروب الاسترداد، ولا متفقا مع الشيوعية لتعارض بعض مبادئها مع الدين الحنيف، وكان يعتقد أن الأندلس من حقها أن تعود كوحدة دينية ولغوية كما كانت عليه في العصر الإسلامي، وتتمتع باستقلال كامل كدولة حرة، بل وحث أنصاره على النضال المستمر كما فعل أجدادهم الموريسكيون المسلمون.

لقي بلاس إينفانتي نفس مصير الشاعر الأندلسي فيديريكو لوركا، حيث اغتالته عصابات الفلانجا رميا بالرصاص في بدايات عهد فرانكو، لكن التاريخ الحديث الإسباني وحتى دستور منطقة الحكم الذاتي للأندلس خلّد هذا المحامي كأب روحي للقومية الاندلسية، رغم أن بعض مؤرخي إسبانيا كانوا يفضلون لو كان إنفانتي قوميا كاثوليكيا أو شيوعيا ماركسيا أو حتى ملحدا، ولم يهتموا كثيرا بإسلامه الذي جنى عليه آنذاك معارضة اليمين واليسار، وأرجعوا علاقته بالهوية العربية والإسلامية إلى مجرد حب اطلاع على الثقافات المجاورة ليس إلاّ.

السياح العرب في إسبانيا في العادة، لا يهمهم من تاريخ البلد وآثاره سوي ما حدث ما بين 711 تاريخ الفتح الإسلامي و1492 تاريخ سقوط غرناطة وبكاء أبي عبد الله وجواب أمه عائشة ببيتي الشعر الشهيرين.

رغم أن هناك عديد الأحداث والشخصيات الجديدة بالإطلاع ولو بشكل سطحي، ليس أولها ثورة جبال البشارات نهاية القرن السادس عشر من طرف الموريسكيين (رواية البشرات نبضة الأندلس الأخيرة لإبراهيم أحمد عيسى من أحسن ما كتب في هذا الموضوع بشكل روائي) وليس آخرها استحواذ الجنرال فرانكو على مقاليد الأمور في إسبانيا بعد انتصاره بفضل جيش من المغاربة المسلمين أو الريغولاريس (جلّهم من الريف الإسباني آنذاك) والذين ساهموا مرة أخرى في النيل من صورة الموريسكي لدى المخيلة الشعبية الإسبانية وكل هذه الأحداث جديرة بالاطلاع والاهتمام لمعرفة كثير من الأمور المعاصرة.

كان أمامي نصف يوم لمشاهدة أهم معالم رندة قبل التوجه مساء إلى مدينة مالقة، وكان ذلك وقتا كافيا جدا.. أما أول معلم قمت بزيارته فهو حمامات المدينة الموروثة من العهد الإسلامي والتي تتميز بأنها الوحيدة في بلاد الأندلس التي حافظت على شكلها القديم وكل مكوناتها الهندسية والهيدروليكية..

وداعا رندة.. أهلا مالقة

Chaque voyage est le rêve d'une nouvelle naissance

تقع الحمامات العربية برندة في الجزء القديم من المدينة، بالقرب من القنطرة العربية الأولى التي لا تزال على حالها اليوم. جدير بالذكر أن ما تركه العرب هنا من آثار لازال صامدا رغم مرّ السنين. ورغم أننا ورثنا (نحن الجزائريون) من المستعمر الفرنسي تعبير «le travail d'arabe» والذي يقترن في مخيلتنا بالكسل وسوء الإتقان وانعدام اللمسة الفنية، إلا أن العمل العربي في إسبانيا عكس ذلك تماما، فكل ما تركه المسلمون هناك يتميز بالصلابة والدقة والحس الفني. وذلك ما يشعرك بالفخر والاعتزاز في كل مرة تشاهد فيها الآثار الإسلامية الباقية هنا، مع الاعتراف أيضا بمجهودات الإسبان الكبيرة في الحفاظ على هذه الآثار وترميماتهم الموفقة للعديد منها بتعاون وتنسيق كبير مع الحرفيين المغاربة، ولو لدواع سياحية صرفة أحيانا.

حمامات رندة أحسن من حافظت على هندستها الأصلية في

إسبانيا كلها، ولا يتجاوز رسم الدخول إليها أربعة يوروهات، وهو مبلغ معقول نسبيا. أما من الناحية الأثرية فتكاد تكون أكثر أهمية من حلبة مصارعة الثيران والجسر الجديد الذي يربط الجزء القديم من المدينة بالجزء الحديث، وهي معلم مميز جدا للوجود الإسلامي في الأندلس عموما ورندة على وجه الخصوص.

بداخل القاعات المتبقية من الحمامات وضعت شاشة عرض كبيرة أمام السياح لمتابعة عرض ثلاثي الأبعاد يوضح كيف كان الناس يستخدمون الحمام في ذلك الوقت، حيث كانت الحمامات الإسلامية تختلف عن مثيلتها الرومانية في أنها كانت تستخدم البخار لإزالة أوساخ الجسد بدل حمام السباحة المشترك. جلسنا أمام الشاشة لمدة عشر دقائق قبل بدء الجولة (كما فعلت من قبل في نفق الحرب الأهلية بألمرية) وبعدها رحنا نتجول في أرجاء الحمام العتيق، قبل أن نخرج إلى حديقة مجاورة لازالت آثار الناعورة العربية التي تجلب المياه من مجرى النهر موجودة فيها، وقد ساعدنا العرض المقدم قبل قليل في تصور وفهم ميكانيزمات كل ذلك. من المفيد أن في عصر الصورة أن نعيد محاكاة مشهد الآثار المندثرة ووظيفتها حتى نقرّب الفهم للسياح الذين يزورون المكان لأول مرة، وهو ما لاحظته مثلا في قصبة ألمرية، حيث أعاد القائمون على الموقع بعث أجواء خزانات المياه عن طريق محاكاة صوتية وضوئية تسافر بك إلى زمن الماضي دون شعور منك.

بعد الحمامات واصلت طريقي ناحية المدينة القديمة حيث لازالت البلدة تحتفظ بجزء من أسوارها وإحدى بواباتها العربية التي تحيط بها أبراج الحراسة. لم يكن المنظر غريبا جدا على من نشأ مثلي في بلدة بن يزقن التي لازالت تحتفظ بسورها كاملا بأبوابه وأبراج حراسته، لكن من المؤسف أن مثل هذه الآثار في بلدنا لا تلقى الاهتمام الكافي، وربما لأن صاحب المنزل لا ينتبه لجمال وقيمة ما يملكه إلا إذا نبهه الضيف إلى ذلك، لكن ما العمل ولسان حال بعض المسؤولين عن الاستضافة يقول «مدخول بابور النفط خير من مداخيل بابورات السياح».

في رندة عليك أن تزور أيضا قصر الملك العربي (قصر يطل على أخدود رندة الذي نراه في كل صورها) مع أن القصر لا يكتنز حاليا من تاريخ العرب سوى برج محفور داخل الصخر ويهبط إلى أسفل الأخدود، كان يستعمل قديما لجلب المياه وللمراقبة العسكرية أيضا المثير أنه في مدخل البرج علقت لافتة كتب عليها بعربية خالصة «وجعلنا من الماء كل شيء حيا».

نزلت داخل البرج عبر أدراج ضيقة، ووسط جو يبعث على القشعريرة، بسبب قطرات المياه التي تسيل من كل مكان، محدثة أصواتا يتردد صداها داخل المبنى، إلى أن وصلت إلى أسفل الأخدود وأمكنني رؤية المنازل البيضاء للبلدة تسترخي تحت أشعة الشمس في الأعلى. رحلة صعود البرج لم تكن أقل إرهاقا، ولكنها

ضرورية لمواصلة استكشاف جوانب البلدة الظاهرة منها والخفية. كان فضولي كبيرا للهبوط تحت الجسر الجديد (nuevo ponte) ورحت أتتبع خط سير مجموعة من السياح الشباب راحوا ينزلون أسفل الجسر لمشاهدة الشلالات وجريان المياه في أسفل الوادي. ما أثار انتباهي في قاع الأخدود هو خلوّه من الأوساخ والروائح، وقد أحسن الإسبان بحماية هذا المكان من المياه المستعملة للمنازل، التي كان من السهل أن يتم التخلص منها في هذا الوادي،أو كما يجري الأمر في مدينة الصخر العتيق عندنا.

لحسن الحظ أو لسوءه (لا أدري بعد) يعجز عقلك كجزائري بسيط أن يتوقف عن التفكير والمقارنة بين البلدين بصفة عامة وبين رندة وقسنطينة بصفة خاصة، وكيف أن الله منحنا واحدة من أجمل مدن العالم في الشرق الجزائري، لكننا ضيعناها بأنانيتنا وحسنا البيئي والجمالي المنعدم. بينما ينعم السواح هنا بأجمل إطلالة من ارتفاع شاهق وهم يجلسون في هدوء واطمئنان عبر المطاعم المنتشرة فوق صخرتهم التي أجادوا الحفاظ عليها واكتملت بفضلهم لوحة بلدتهم الجميلة الملهمة لكل زائر رآها أو قرأ عنها.

عدد السياح هنا كبير جدا وهم يتدفقون كل يوم على رندة قادمين إليها من شاطئ الشمس الشهير (لا يبعد عن هنا إلا بأقل من مائة كيلومتر) والذي تنتشر به مدن توريمولينوس وماربيا وفوانخيرولا ونيرخا وهي مدن سياحية ضخمة تعج بالمصطافين الباحثين عن المتعة

والاستجمام والذين لا يمانعون أحيانا في أخذ جولة إلى المرتفعات الأندلسية التاريخية قبل النزول إلى الشاطئ كي يعيشوا ويبددوا حاضرهم مرة أخرى.

احتفظت بذكريات جميلة جدا من هذه البلدة، وكنت أتمنى المكوث بها أكثر من ليلة، لكن الإنسان عدو ما يجهل، وبرنامجي المسطر سلفا لم يأخذ في الحسبان أن أقع في شباك حب هذا المكان لأغادره بأسرع مما يجب (وهذا من سلبيات الحجز المسبق على كل حال).

ساعة ونصف كانت المدة التي قطعتها الحافلة من رندة إلى مالقة (سادس محطة لي في الرحلة وللمصادفة أيضا سادس مدينة إسبانية من حيث الأهمية وعدد السكان) وقد قمت باستغلال نصف هذه المدة في أخذ إغفاءة ضرورية. خاصة بعد أن أصبحت المناظر التي أراها من نوافذ الحافلات متشابهة، ولا مانع من أن أمر عليها بجفون مطبقة.

تركت في رندة رائحة الأندلس وعبق التاريخ ووصلت إلى مالقة عاصمة شاطئ الشمس الشهير (sol del costa) مستقبل إسبانيا ووجه الأندلس الحديث بمبانيها المضيئة، وشوارعها الواسعة ومينائها الكبير.

ذهبت مباشرة إلى فندقي الصغير ولم يكن يبعد كثيرا عن محطة

الحافلات، وضعت أمتعتي وألقيت نظرة صغيرة على الغرفة وشكلها، من المؤكد أنني لن أراها كثيرا لأني سأخرج بعد قليل لتناول العشاء ثم أعود إليها للنوم لأغادرها صباحا نحو الهوستيل، الذي حجزت به ثلاث ليال إضافية.

تناولت العشاء في مطعم باكستاني غير بعيد وأعجبني كثيرا حجم السندويتش والصلصة البيضاء المرافقة له. لولا هذا النوع من المطاعم الذي يقدم الوجبات الحلال السريعة وبسعر في المتناول لكانت الرحلة انتهت ماديا قبل أوانها بكثير.

لم أغامر كثيرا بالتجول ليلا في عاصمة ساحل الشمس وأنا لم أرها تحت الشمس بعد، وقضيت وقتا أطول على طاولة المطعم أدردش مع شقيقي عبر الفايبر ونعقد المقارنات بين إسبانيا وفرنسا التي يستقر بها منذ سنوات. يبدو أن الثانية أغلى وأصعب من الناحية المعيشية لكن الفرصة متوفرة دوما لمن يحب العمل ويسعى للاستقرار وتطوير الذات ولا يغريه افتعال المشاكل واختلاق مبررات الفشل.

وأنا أطالع كل ما تظهره شاشة هاتفي من محتوى عربي حول الأندلس طيلة رحلتي هنا، لاحظت أن أكثر العرب الذين يزورونها ويقتسمون تجاربهم المصورة والمكتوبة فيها يأتونها من دول الشرق الأوسط والخليج تحديدا، بينما يغيب أبناء المغرب الإسلامي عن المشهد إلا القلة منهم، وربما كان تفسير ذلك (بغض النظر عن المعطى المادي

الذي يجعل أبناء الخليج في يسر من أمرهم عند السفر) أن عرب المشرق بحكم بعد المسافة يستشعرون القرب الوجداني للأندلس أكثر من المغاربة الذين ينتشرون بها بأعداد كبيرة للعمل وكسب لقمة العيش أكثر من شيء آخر.

المهم أنني أنصح كل من يريد زيارة إسبانيا أن يشاهد فيديوهات الأجانب والأوروبيين ويأخذ أهم المعلومات من المواقع الأجنبية خصوصا في موضوع الميزانية لأن مواقعنا العربية للسفر والتي يغذّيها الخليجيون بالمعلومات عموما ستعطيك الانطباع أن كل شيء رخيص هنا من كراء السيارة إلى الحجز في فندق متواضع بمائة يورو لليلة الواحدة إلى أخذ تاكسي من وإلى المطار بسعر ممتاز ...الخ.

يوم الأربعاء 20 سبتمبر 2017 استيقظت باكرا كعادتي للاستمتاع هذه المرة بأول جولة صباحية لي على شاطئ البحر منذ قدومي، ومنها التوجه إلى متحف تحول في وقت قصير إلى محطة ضرورية لكل زائر هنا.. إنه متحف السيارات القديمة بمالقة.

متحف تحت سقف.. وآخر تحت السماء

voyager, c'est gagner son procés contre l'habitude

عندما نتجول في مدننا الكبرى تصادفنا بعض المصانع أو المستودعات القديمة التي بنيت في عهود مضت، وقد أصابها الإهمال وتحولت إلى ما يشبه الحطام المهجور الذي فقد علة وجوده الأساسية بعد أن أصبح خاليا من كل حركة ونشاط.

مصنع التبغ القديم في مالقة والذي يعود تاريخ ازدهاره إلى بداية العشرينات من القرن الماضي، كان سيلقى نفس المصير الذي تلقاه المصانع القديمة عندنا وسط المدينة، لولا أن إسبانيا بلد سياحي عريق (الثانية عالميا بعد فرنسا) ولا يفوتها استغلال كل متر مربع لجلب مزيد من السياح (ومنهم العبد الضعيف) وهكذا كُتب للمصنع القديم حياة ثانية، بعد أن تحول منذ سنة 2010 إلى واحد من أهم متاحف السيارات في جنوب أوروبا.

وصلت إلى المتحف المذكور بعد عشرين دقيقة من المشي الصباحي على كورنيش المدينة والذي لا تفصله إلا أمتار قليلة على شاطئ البحر. في طريقي صادفت شبابا وكهولا وأناسا من كل الأعمار يمارسون طقوس رياضة الركض بكل أريحية ومتعة. لا أعرف لماذا أغبط الأوروبيين على قدرتهم في جعل شاطئ البحر متنفسا إضافيا لمدنهم على الأفق المتوسطي الجميل، يمارسون فيه ما يحلوا لهم من أنشطة وهوايات. بينما يكون البحر عندنا سببا لإغلاق المنافذ نحوه، وحماية المواطن من البحر، أو البحر من المواطن (لم نعد نفهم).

رسم الدخول لا يتجاوز تسعة يوروهات، وهو مبلغ معقول لمن يزور المتحف لأول وآخر مرة، ويود اكتشاف سيارات البينتلي والفيراري والجاغوار والمرسيديس أمام عينيه وليس عبر الشاشات والصور.

الجميل في المتحف أيضا أنه يضم أكثر من ثمانين سيارة، ستعطيك الإحساس وأنت تتجول بين أشكالها المختلفة وتقف أمام كل واحدة منها لتأمل تفاصيلها المتقنة الصنع، أنك أمام كتاب تاريخي مفتوح على تطور هذا الاختراع، الذي بدأ خطواته الأولى نهاية القرن التاسع عشر، ليجعل القرن العشرين والواحد والعشرين بالصورة التي وصلتنا اليوم.

الأجمل من كل ذلك أن المتحف يضم أيضا أزياء وملابس قديمة، تم وضعها بجانب السيارات، وتؤرخ لتطور موضة اللباس عبر عقود من الزمن في عرض ثنائي يبدو للوهلة الأولى غير متجانس، لكن مع

تقدمك في أرجاء المتحف ستعجب كثيرا بفكرة هذا الزواج الناجح.

لم أكن من المهووسين بحفظ ماركات السيارات في أي وقت من الأوقات، ولم يحدث أن اقتنيت سيارة من أي نوع في حياتي، لكني استمتعت كثيرا بزيارة هذا المعرض الذي زينه القائمون عليه بديكورات مبتكرة، وأضافوا لكل محرك وعجلة ومحطة بنزين قديمة لمسة فنية وجمالية، تجعلك محاصرا بقوة ناعمة داخل عالم السيارات، وتعود بك رغما عن شبابك إلى أجواء طفولتك، حين كنت تندهش من رؤية أي جديد شيء لم تألفه عيناك. كما ستنشط هذه الزيارة ذاكرتك باستعادة صور سيارات صادفتها من قبل في أفلام قديمة، أو في رسوم متحركة، أو في صور الرزمانات الصغيرة والكبيرة التي كنا نعلقها في جدران المنازل والأقسام بعد الحصول عليها بداية كل سنة، قبل أن تحرمنا هواتفنا الذكية من تلك العادة السليمة.

استغرقت مني الجولة ثلاث ساعات على الأقل، لم أشعر بمرورها إطلاقا، وخرجت من جديد نحو الشارع، متوجها إلى الفندق لحزم أمتعتي والانتقال إلى الهوستيل. في الطريق مررت ببعض المساحات الخضراء والمبلطة على شاطئ البحر، والتي وضعت فيها بعض الآلات الرياضية، المساعدة على تقوية العضلات والحفاظ على لياقة الجسم. الناس هنا مهووسة ببعض التفاصيل التي صرنا لا نلقي لها بالا في حياتنا اليومية في بلدنا، بعد أن أصبحنا في قبضة آلة روتينية

ضخمة تطحن أجسادنا ومعنوياتنا يوميا، كي تجعل منا مجرد غبار، لا يملك من أمره شيئا أمام رياح الواقع التي تدفع به نحو كل اتجاه.

قبل سنوات التقيت أحد الفلسطينيين الذين استقروا في الجزائر منذ الثمانينيات، وقد أخبرني أنه لاحظ تغيرا في الهيئة الجسدية للجزائريين، بعد أن أصبح فيها البطن منتفخا أكثر، لدى مواطنينا من جميع الأعمار. لا أعرف إن كان لهذه الملاحظة علاقة بعدم ممارستنا الرياضة (مع أن الجميع يتابع المقابلات الرياضية) أو أن عاداتنا الغذائية تدهورت إلى الحد الذي أصبحنا لا نفرق فيه بين الغذاء للبقاء على قيد الحياة والتغذية السليمة للحصول على جسم صحي وعقل منتبه. لكن المؤكد أن عديد الأوروبيين يمارسون الرياضة بشكل دوري في حياتهم العادية، وذلك ما يساهم في وصول أكبر كمية من الاكسجين نحو الذهن والعضلات.أما كيف يستطيعون تنظيم برنامجهم اليومي لتنفيذ ما تتطلبه أعمالهم وهواياتهم فذلك ما نعجز عن فهمه إلى يومنا هذا، ولو أننا أردنا تقليدهم ليوم واحد فقط لأدركنا آذان المغرب قبل ننفذ نصف البرنامج كما يردد ذلك أحد أصدقائي.

انتقلت بعد عودتي من المتحف في عملية ترحيل أخرى للحقائب نحو الهوستيل، الذي كان يقع بالقرب من وسط مدينة مالقة القديم، وقد أصبحت أمتعتي أكثر ثقلا بعد المقتنيات التي حملتها معي من إشبيلية، كما ساهمت حرارة الجو في جعل خطاي متثاقلة بعض

الشيء، لكني كنت أمنّي النفس بغرفة مريحة تزيل عني التعب عند الوصول.

بعد نصف ساعة من المشي وصلت إلى المكان، ووجدت عند الاستقبال امرأة يبدو أنها تمارس هذا العمل للمرة الأولى، حيث قبعت أمام شاشة كمبيوترها لوقت طويل (بعد أن أخذت مني جواز السفر) وراحت تكتب وتمحي وتبحث وتسأل وتتعجب، قبل أن يأتي أحد الشباب الذي لا أعرف من أين خرج لتقديم يد المساعدة وإطلاق سراحي نحو غرفتي.

لم يكن الهوستيل بتلك الفخامة والجمال الذي يبدو عليه في الصور، صحيح أنه نظيف لكنه عتيق وقديم جدا. دخلت الغرفة وكان بابها خشبيا مطليا باللون الأبيض وينفتح بصعوبة رميت أمتعتي عند أول سرير وجلست متأملا الوضع، والذي ذكرّني مباشرة بإحدى الغرف في منزل جدتي القديم، كانوا يحبسوننا فيه نحن الأطفال في وقت الظهيرة بداية التسعينيات، حتى نترك الكبار ينامون في هدوء.

الخزانات الخشبية التي تفصل بين الأسرّة لوضع الأمتعة كانت مغلقة في معظمها عدا تلك الفارغة، والتي كانت أبوابها مفتوحة، وعليك أن تتدبر قفلا حديديا لإغلاقها، وإن لم تملك واحدا فعليك شراءه (بعشر أضعاف ثمنه في الجزائر طبعا).

لحسن الحظ وجدت شخصا يبدو أنه من أبناء قارتنا العزيزة يهم

بالمغادرة، فسألته بالانجليزية وأجابني بالإسبانية، وحين عرفت أنه كاميروني، أدركت أننا كنا تحت استعمار واحد، ورحنا نتحدث بالفرنسية الفصيحة المريحة لكلينا.

أخبرني أنه يسكن مالقا منذ خمس سنوات فتعجبت من ذلك واستفسرته عن سبب وجوده هنا مادام من سكان المدينة، فقال أنه في الصيف يعرض منزله الصغير للكراء بصيغة BNB AIR مقابل ثلاثين يورو لليوم الواحد، ويأتي هنا للمبيت بخمسة عشر يورو لليلة، فيوفر مصروفا إضافيا لنفسه. تمنيت له حظا موفقا وأثنيت على هذا الذكاء الإفريقي الذي نحن بأمسّ الحاجة إليه في قارّتنا الأم، أما هو فكان لطيفا وترك لي خزانته مع القفل الحديدي لأوفّر على نفسي أربعة يوروهات ثمينة.

السرير لم يكن مريحا على الإطلاق، وكان يُحدث صريرا مزعجا عند أدنى حركة لكني اخترته بسبب المقبس الكهربائي الذي كان بجانبه (لشحن بطارية الهاتف الذكي).

بعدما وضعت جميع الأمتعة في الخزانة الخشبية الصغيرة بجانب فراشي، خرجت لألقي نظرة على النزل. وجدت أن مراحيض الرجال في الطابق الأول، مما يعني وجوب التنقل بين الطوابق في كل مرة يود المرء فيها قضاء حاجة من حاجاته، بينما يتواجد في طابقي الرابع مطبخ جماعي، به ثلاجة وفرن وطاولة من أربع مقاعد لمن يريد طبخ عشائه أو فطور صباحه بنفسه وتناوله هناك. النزل كان يحوي أيضا بعض

الديكورات اللطيفة المعلقة على الجدران والأسقف، والمصنوعة من مواد بسيطة جدا كالأواني القديمة والأسلاك والأخشاب والبلاستيك والأوراق والزجاج. لقد اكتشفت في أوروبا أن كل المواد المحيطة بنا يمكن أن تكون عجينة لفكرة مبدعة تفتح شهيتنا للانبهار بما تراه، شرط أن تمنح لذاتك ترف عناء التأمل والابتكار.

عدت إلى غرفتي التي يدخلها نور ساطع من خلال إحدى النوافذ الزجاجية في السقف، واستلقيت على السرير لأخذ إغفاءة صغيرة، كانت المروحة الهوائية الموجودة في ركن الغرفة تدور يمنة ويسرة لتوزيع الهواء المنعش، وتصدر لحنا ذكرني بلحن قيلولات الصحراء في طفولتي، ما جعلني استغرق في نوم عميق .

استيقظت قبل وقت العصر بقليل، رتبت أموري، وقفزت نحو الشارع للتجول في حيي الجديد بمالقة لاكتشاف معالمه من أزقة ومطاعم وحدائق وساحات، ويبدو أنني من ناحية الموقع، قد أحسنت اختيار مكان المبيت..

مالقة..حسناء الأندلس

Quiconque voyage beaucoup ,s'instruit

حين تكون في مدينة ساحلية كمالقة فإن أول عنوان قد تفكر في زيارته سيكون الميناء دون شك، ولحسن الحظ فإن المرقد الذي حجزت به لا يبعد عن ميناء المدينة إلا بمقدار ما تبعد ساحة أول ماي عن ساحة البريد المركزي بالعاصمة الجزائرية.

قبل الوصول إلى وجهتي وجدت شارعا طويلا يفصل بشكل أفقي المدينة عن ميناءها، وهذا الشارع عبارة عن صف طويل من الأشجار والنخيل والنباتات التي زرعت بعناية في المكان، لتوفر ظلالا باردة تلطف الأجواء الحارة بشكل ملحوظ. الإسبان يولون عناية فائقة لتهيئة الحدائق داخل المدن، ومكانة الشجر عموما وشجر النخيل تحديدا، بارزة في كل الملامح الحضرية في الإقليم الأندلسي.

ميناء مالقة واسع جدا وفضاء مفتوح، تنتشر به المحلات والمقاهي

والمطاعم، كما أنه يضم فضاءات واسعة للراجلين تسمح بممارسة هوايات الركض وسياقة الدراجات والنزهات المسائية.

دخلت بعض محلات العطور بجانب ميناء النزهة، بعد أن سمعت إحدى السائحات تقول لصديقتها إن أسعار العطور هنا أحسن من أسعارها في فرنسا. كنت أظن أن محلا في مكان استراتيجي كهذا لا بد أن يجعل أسعاره في مستوى الإيجار المرتفع الذي يدفعه، لكن هذه المقاربة ليست صحيحة دوما (وإن كانت لا تزال عندنا من القواعد المحترمة) والدليل أنني اقتنيت زجاجة عطر من هناك بنصف ثمنها في الجزائر.

رأيت سواحا من كل الأقطار في هذا المكان يصطحبون أبنائهم ويلهون ويلعبون برفقتهم في سعادة واستمتاع. لكن ما شد انتباهي مرة أخرى (ولا أدري لماذا أجد متسعا من الوقت للانتباه لمثل هذه اللقطات والحركات في العطلة) هو أن الكبير هنا حين يلعب مع الطفل الصغير يتحول بسهولة (أي الكبير) إلى مهرج يقوم بحركات صبيانية ينزل بها إلى مستوى الطفل ليزيد في التجاوب المرح لهذا الأخير.

تساءلت في نفسي عن السبب الذي يجعلنا نحن نقوم بعكس ذلك مع أطفالنا حين نداعبهم ونلعب معهم، حيث نطلب منهم دون شعور منا أحيانا أن يصبحوا كبارا مثلنا، فنقوم بإغاظتهم ونرفزتهم واستفزازهم بأن نسلبهم أشيائهم أو نعيّرهم بالقبح أو نعبث في

ملابسهم وشعرهم ونستمتع برؤيتهم يصرخون أو يقاومون بأيديهم الصغيرة، بل وتجد أولياءً يداعبون أبنائهم أو أبناء أصدقائهم بكلمات مثل : ناموسة، خانزة، حلوف، شيطان ...الخ وكل ذلك يبدو لي الآن شيئا غريبا ومقيتا بعد أن أتيحت لي فرصة المقارنة والمفاضلة.

التمشي في الميناء ورؤية أنواع السفن والمراكب واليخوت على بعد أمتار منك يعطيك إحساسا غريبا بالانطلاق والانشراح والانفتاح على العالم، لترى البحر بابا للحرية بدل أن يكون حاجزا دونها. البحر بالنسبة لأي مدينة ساحلية هو موقع قوتها لا موقع الضعف في نسيجها الحضري أو كما يعتقد أصحاب المقاربة الأمنية في كل تفاصيل حياتنا.

توجهت ليلا نحو مجموعة من مطاعم الحلال التي تقع بالقرب من محطة الحافلات الرئيسية للمدينة وتناولت بعض الطعام، طبعا بعد أن طلبت من النادل كلمة الويفي السرية، وهو إجراء أقوم به أولا وقبل كل شيء عند جلوسي في أي مطعم بإسبانيا. أخذت وقتي في تصفح بعض المواقع التي تشرح للسائح أهم المعالم والمواقع الجديرة بالزيارة في المدينة أو ضواحيها، حيث وبمجرد أن تكتب في محرك البحث: ما الذي يمكن أن تفعله في مالقا، أو 10 نشاطات يجب أن تقوم بها في مالقة، حتى تتزاحم في واجهة الصفحة الأولى للقوقل المواقع السياحية التي تجيبك بالكتابة والصوت والصورة والخريطة عن أسئلة ماذا وكيف وأين وكم السعر وآراء المجربين؟ لذلك لا تتوقع

أن يتركك الإسبان لمصيرك تائها، وهم يستقبلون سنويا أكثر من ثمانين مليون سائحٍ مثلك (تقريبا ضعف عدد سكان البلد المقيمين) فمالقة عاصمة شاطئ الشمس ستكلمك بكل لغات الأرض حين تكلمها بلغة السائح دافع المال مقابل خدمات الراحة والاستجمام.

في صباح الخميس 21 سبتمبر 2017 ذهبت لزيارة أهم موقع أندلسي في مدينة مالقة وهو حصن القصبة المنيع الذي يطل على المدينة والميناء، كنت من أوائل الداخلين إلى الموقع بعد أن دفعت ثلاث يوروهات كثمن للتذكرة الواحدة، علما أن الدخول مجاني أيام الأحد من كل أسبوع.

مدينة مالقة كانت من أهم الواجهات البحرية لمملكة غرناطة في آخر أيام الوجود الإسلامي بإسبانيا، وعند سقوطها سنة 1487 بعد حصار مرير ومعارك شرسة، رفع العلم الصليبي على أسوارها لأول مرة منذ بناءها في القرن الحادي عشر، وأصبح الطريق ممهدا لابتلاع غرناطة بعد خمس سنوات من ذلك.

لقد تميزت هذه المدينة بمناعة طبيعية جعلت الإسبان يحرسونها عن قرب لفترة من الزمن بعد استرجاعها، خوفا من وقوعها في يد المغاربة إن هم عبروا المتوسط نحوها وتحصنوا بها من جديد،على غرار ما فعل الإسبان عند احتلالهم لبعض الثغور في أرض المغرب ذاته، وذلك لاحباط معنويات المسلمين والدفاع عند خطوط هجومهم الأولى.

تجولت بداخل حصن القصبة صعودا، لمدة أكثر من ساعة، وهو من أمنع الحصون الأندلسية التي حافظت على شكلها الهندسي الأول، وأمكنني من فوق أسواره وأبراجه إلقاء أجمل نظرة على ميناء المدينة وبواخره الضخمة الراسية، ثم واصلت الصعود نحو حصن «Gibrilfaro» أو جبل الفارة، وهو حصن إسلامي قديم يتصل بالقصبة، أسواره متينة جدا وبداخله معرض جميل، يمكن أن تشاهد بداخله مجموعة من التحف والأواني والأسلحة والخرائط القديمة، ومجسمات المدينة الإسلامية في عصر ملوك الطوائف.

بعد خروجي من القصبة نزلت مباشرة إلى السوق المركزية للمدينة وهو سوق قديم مغطى تم ترميمه وجعله مكانا مفضلا لهواة أكل السمك الطازج بكل أنواعه، يمكنك في السوق أن ترى أنواعا وأشكالا وألوانا من المنتجات البحرية ستشبعُ عيناك من رؤيتها قبل أن تستقبل معدتك أدنى لقمة منها. جلست في أحد الطاولات الصغيرة ذات الكراسي الطويلة لتناول طبق بايلا شهي، وهو أشهر طبق شعبي في إسبانيا يتكون من قليل من الأرز، مع قطع من الأسماك وما يسمى بالفواكه البحرية.

طعم الملح ورائحة بحر المتوسط التي تستقر في كل خلية عصبية منك بعد هذه الوجبة الدسمة ستجعلك تغادر المطعم سريعا نحو غرفتك بالهوستيل، كي تحمل بعض اللوازم وتهرول نحو شاطئ المدينة من أجل ممارسة السباحة والاستلقاء تحت أشعة شمس

سبتمبر الدافئة.

يشتهر شاطئ مالاقيتا (مشتق من مالقة) بوجود اختصاصيي شواء السردين، حيث ينتشرون على طول الشاطئ لعرض أعواد شواء لذيذة لهذه السمكة، التي يقال أنها لو كانت نادرة لكانت أغلى أنواع السمك في البحر، بالنظر لقيمتها الغذائية التي تكتنزها، بغض النظر طبعا عن طعمها الممتاز، خاصة حين تطهى على جمر الفحم، وتقدم مع شرائح الليمون.

لم يكن الشاطئ مزدحما كثيرا، كان البعض يقرأ كتابا والبعض الآخر مستلقيا مستسلما لأشعة الشمس، وطبعا لم أكن لأقضي على الرمل وقتا أكثر من الذي أقضيه في البحر، وتوجهت للغطس مباشرة في المياه لأسبح ساعة كاملة من الزمن قبل المغادرة.

في المساء كانت لي جولة في شوارع المدينة وساحاتها المزدحمة والمفعمة بالحركة، أين تسمع كل اللغات وتلتقي بكل الجنسيات، لكن رغبتي كانت أكبر في أن أشاهد غروب الشمس على مدينة مالقة من البحر، وهي رغبة يمكنك تحقيقها بسهولة هنا، عبر جولة بحرية في مراكب خاصة تنطلق بك من ميناء المدينة نحو عرض البحر، ثم تعود بك لتعطيك فرصة الاستمتاع بهذا المنظر.

آخر مرة استطعت فها مشاهدة العاصمة الجزائرية من البحر كانت حين غادرتها إلى مرسيليا قبل خمس سنوات من الآن، ويا للمفارقة

لازلنا نحتاج إلى تأشيرة من بلد أجنبي، كي تتاح لنا فرصة رؤية عاصمة بلدنا من البحر.

اصطفت المراكب في رصيف صغير بالميناء كما تصطف حافلات النقل عندنا بالمحطة البرية في انتظار الركاب، وركبت في إحداها لتنطلق بنا في التوقيت المحدد على التذكرة (ثمنها 8 يورو) رغم عدم امتلاء مقاعد المركب عن آخرها.

أبحر بنا الربان خارج الميناء، وكانت المدينة تبتعد عن ناظرنا شيئا فشيئا، بينما تتوسع زاوية رؤيتنا لشواطئها الشرقية والغربية. كان المركب من طابقين، وفيه عدد من المقاعد الخشبية التي جلس فيها السياح لتأمل مشهد غروب الشمس وجمال اللون البرتقالي، الذي حوّل بُقع السحاب على صفحة السماء، إلى لوحة فنية طبيعية تزيد روعتها حين تراها وأنت فوق أمواج البحر المتحركة من تحتك. دامت رحلتنا ساعة من الزمن على أنغام موسيقى العطل والمرح المنبعثة من المركب، قبل أن نعود وقد اكتسبنا نفسا جديدا من داخل البحر ندخل به إلى المدينة بكل ثقة.

بعد وجبة عشاء شهية في مطعم الإخوة الباكستانيين، ارتحت في طاولتي بما فيه الكفاية كي أخطط لبرنامج اليوم الموالي، ووجدت على النت أن بلدة ميخاس وجهة جديرة بالزيارة والاكتشاف لمن يقضي عطلته في مالقة. خرجت من المطعم مباشرة إلى محطة الحافلات المجاورة لإلقاء نظرة على مواعيد انطلاقة الباصات نحو ميخاس،

وصورت بهاتفي النقال كل ما وجدته من ملصقات ومعلومات معلقة داخل المحطة قبل العودة مجددا لقضاء الليلة في سريري المزعج بصريره بعد يوم طويل أراح النفس وأتعب الجسد، فالعطلة في النهاية.. ليست بحثا عن راحة جسدية وفقط بقدر ما هي ارتياح نفسي يدركه المرء كلما ابتعد عن معالمه الروتينية..

ساحل الشمس.. مكان للعيش والتأمل

Voyager , c'est partir a la decouverte de l'autre et le premier inconnu a decouvrir c'est vous

القرى البيضاء أو «blancos pueblos» علامة مميزة لإقليم الأندلس، وهي من بقايا الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الايبيرية (خاصة في تراب مقاطعتي مالقة وقادس) والدليل أنها لازالت تحتفظ بنفس مميزات القرى الأمازيغية في الشمال الإفريقي من حيث مواقعها في أعالي الجبال وأزقتها الضيقة واللون الأبيض الذي يطبع منازلها الصغيرة، كما أنها كثيرا ما تستمد تسمياتها من ألكالا (القلعة) أو لافرونتيرا (الحدود) وهو ما يدل على أنها كانت في مواقع تماس بين النصارى والمسلمين ممن كانوا في مملكة غرناطة قبل السقوط.

تعتبر ميخاس من أجمل القرى التي تجسد هذا الجمال الأندلسي الأصلي، وهي المعلقة في قمة مرتفع جبلي على علو أكثر من أربعمائة

متر فوق سطح البحر غرب مالقة. الطريق إلى هذه القرية يمر عبر مدن توريمولينوس وبنيلمدينة وفوانخيرولا وهي مدن سياحية كبيرة، عرفت توسعا ضخما في الخمسين سنة الأخيرة بعد أن استقر بها عدد هائل من الأجانب، وخاصة من متقاعدي النصف الشمالي من القارة العجوز، حيث تجذبهم أشعة الشمس الودودة وتكلفة المعيشة المنخفضة إلى تمضية ما تبقى لهم من أعمار بهذه الربوع.

صباح الجمعة 22 سبتمبر 2017 انطلقنا نحو بلدة ميخاس في باص كان جل ركابه من كبار السن، وكنت تقريبا الشاب الوحيد من بينهم. لا يعني ذلك أنهم كانوا متعبين أو مهمومين، بل كانوا مفعمين بالحيوية والنشاط، ولم يكفوا عن الثرثرة طيلة الطريق، كما أنهم يلبسون بذلات صيفية أنيقة ويحملون كتيبات صغيرة وخرائط تساعدهم في التنزه بفهم ودراية.

يقوم الغربيون بتحضير تقاعدهم بشكل مسبق، وتعتبر مرحلة ما بعد الستين بالنسبة لهم حياة ثانية، يقومون أثناءها بأسفار وجولات مستمرة عبر العالم .صحيح أنهم يراعون فيها سنهم المتقدمة، لكنهم يقبلون على هذا النشاط بمرح وحيوية نفتقدها حتى عند شبابنا، ودعك من الحديث طبعا عن نظرائهم من نفس السن عندنا.

البلدة كانت موقعا سياحيا مثيرا، تتميز بنظافة مثالية، وكل شيئ كان فيها مهيئا لاستقبال العدد الذي أفرغه الباص الذي أوصلنا إليها وعشرات الباصات التي يمكن أن تأتي بعده. أول محطة لي كانت

الديوان السياحي للبلدة، حيث حصلت على خريطة بأهم معالمها الجديرة بالزيارة. خرجت بعدها لأجد عددا من الحمير المزينة في انتظار السياح، وهي حمير يركبون عليها للتجول الجماعي فوق ظهورها رفقة دليل سياحي. الحمار في إسبانيا لا يقل رمزية عن الثور الأسود، فكلاهما أيقونات مميزة للعلامة السياحية الإسبانية التي يتم تسويقها في العالم، إنها صناعة متكاملة الأركان والمعالم ولا مكان فيها للارتجال والمناسباتية.

بداخل قرية ميخاس شوارع مزينة بكل أنواع الورود والأزهار التي تبدو لك أنها زرعت منذ لحظات، كما يخيل إليك أن منازلها قد طليت للتو. المنظر أشبه باستوديو تصوير تم ضبط إضاءته وديكوراته بدقة من أجل إعطاء صورة فائقة الجمال للسائح، الذي سيحتفظ دون شك ولوقت طويل، بوقع هذه الصور في ذاكرته الشخصية أو الذاكرة الالكترونية لهاتفه أو آلة تصويره.

من أجمل ما وجدت في هذه البلدة شرفة ظليلة يمكنك من خلالها أن تطل على البحر والقرى السياحية، مع خريطة تبين لك موقعك وأسماء المناطق التي تطل عليها، من النقطة التي تقف فيها.

التجول في أزقة ميخاس متعة للعين وراحة للبصر، فكل شيء أمامك متناسق الألوان والأشكال، حيث التناغم بين ما خلقه الله وصنعه الإنسان يجعلك منتشيا بما تراه، بغض النظر عن امتلاكك للذوق الفني أو الحس الجمالي. المظهر الأندلسي الفريد للقرى

البيضاء التي تتسلق النباتات الخضراء جدرانها ويغطي القرميد الأحمر أسقفها تعكس بحق لون العلم الأندلسي الأبيض والأخضر، واللون الأحمر أيضا في الراية الإسبانية.

كان أمامي متسع من الوقت أيضا لصعود قمة البلدة، وإلقاء نظرة منها على كل المساكن في الأسفل وكذلك رؤية ساحل البحر في الأفق ولو أن نسبة بخار الماء في الجو خصوصا في يوم حار كهذا، حالت دون رؤيتي لجبل طارق الذي يقال إنك يمكن أن تراه من هذا المكان (لم يتسنى لي التأكد من ذلك لكننا في الجزائر نستطيع مثلا رؤية رأس بوقارون بسكيكدة من رأس كربون ببجاية في الأجواء الصافية والمسافة بينهما بعيدة حقا).

كنت قد راسلت المكتب السياحي لإقليم جبل طارق قبل سفري، أسألهم عن إمكانية زيارتي لهذا الموقع الاستراتيجي الذي يقع تحت السيادة البريطانية منذ 1713. لكنهم أجابوني بعد ثمان وأربعين ساعة بإيمايل يشكرونني فيه على التفكير في الزيارة، ويدعوني إلى الاتصال بالجهة المسؤولة عن تسهيل مثل هذه المهمة للسياح، والمتمثلة في السفارة البريطانية بالجزائر، كما أعربوا لي مرة أخرى عن امتنانهم لهذه المبادرة في التفكير بوضعهم في برنامج رحلتي السياحية (قتلوني بالقدر).

جبل الفتح أو جبل طارق، مستعمرة إنجليزية مثيرة لنفس الجدل الذي تثيره مستعمرتا سبتة ومليلية وباقي الجزر الصخرية التي تسيطر

عليها إسبانيا في الساحل المغربي المقابل، وقد نظم أكثر من استفتاء لعودة الصخرة إلى الحضن الإسباني لكن يبدو أن السكان يقولون «لا» في كل مرة (آخرها سنة 2003) والمصوتون بنعم لا يملئون مقاعد كنيسة واحدة، كما يعلق بعض الإعلاميين الإنجليز تهكما.

لا داعي للتذكير أن الإقليم منطقة تجارية حرة ونقطة اقتصادية مضيئة تدرّ على المضيق والدائرة المحيطة به أرباحا مالية كبيرة، ليس من مصلحة طرفي النزاع التفريط فيها، تماما كما يستفيد المغرب اقتصاديا من وجود سبتة ومليلية فوق أراضيه الجغرافية بشكل أو بآخر.

أخذت عبر جولتي في ميخاس جرعة أكسجين منعشة للجسد والعقل قبل أن أركب الباص من جديد نحو مالقة حيث قررت أن أتوجه مرة أخرى إلى شاطئ البحر.

للسباحة في شهر سبتمبر لذة خاصة، لن تجدها في جويلية أو أغسطس، وللسباحة في وسط المدينة وعند أقدام العمارات والسكنات طعم خاص أيضا، يجعلك تصدق من جديد أن البحر يمكن أن يكون نظيفا بالقرب من تجمع سكاني حضري تماما كما صدقت أن مراسلتك لجبل طارق لا يمكن أن تبقى دون إجابة. جميل أن يكتشف المرء أن الواقع هو ما قبلناه كواقع وليس ما هو مفروض علينا كقضاء وقدر. ومدرسة السفر أحيانا، أحسن من يشرح لنا ذلك.

قضيت فترة القيلولة في شاطئ المدينة بين سباحة وتعرض لأشعة الشمس، كان الشاطئ من الاتساع بما يجعلك تختار مكانا تجلس فيه شبه وحيدا تتأمل السماء التي يعكّر صفوها كل عشر دقائق انطلاق للطائرات من مطار مالقة القريب. لست بحاجة إلى عداد لتعرف حجم النشاط السياحي والاقتصادي الذي يتدفق من وإلى هذه الحاضرة المتوسطية، التي عرفت كيف تجذب (عدا الأعداد الكبيرة من السياح الموسميين) جحافل المتقاعدين من كل مكان، كي توفر لهم أجواء حياتية مريحة، مقابل الاستحواذ على معاشاتهم.

يحدث ذلك أيضا في المغرب، أين بنيت قرية عصرية كاملة ومجهزة لهذه الفئة العمرية انعكست آثارها الإيجابية على البلدات المجاورة هناك، خصوصا في قطاعي التجارة والنقل. أعرف رجل أعمال عندنا درس الصيدلة والسياسات الصحية، وكان مهتما بإنشاء مشروع مماثل في الجزائر، لكن حجم المعوقات والمثبطات التي بدأ يكتشفها كلما تعمق في دراسة المشروع حتى لا أقول إنجازه، جعله يصرف النظر عن الفكرة إلى حين.

في المساء رحت أتجول في ساحات المدينة دون هدف محدد قبل أن أعود إلى الفندق وأقوم بترتيب أمتعتي جيدا وأنظم محتوياتها تحضيرا لرحلة العودة. أما في الليل فقصدت مطعمي المعتاد لتناول العشاء، وهناك جلس بجوار طاولتي ثلاث شبان من أصل عربي (سعودي ولبناني يحاولان مساعدة أحد اليمنيين على الاستقرار

بمالقة كما فهمت من حوارهم) ويبدو أن الوحدة العربية أقرب للتجسيد والتطوير كلما ابتعدت عن سجنها الجغرافي.

بادرت الشاب السعودي بالحديث وسألته عن عمله هنا، فقال إنه مدير المركز الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي والتي تسيّر أربع مساجد في إسبانيا، أحدها مسجد السلطان إبراهيم في جبل طارق. سألته بالمناسبة عن سر بناء المسجد الضخم في ذلك الإقليم، فقال إنه كبير حقا مقارنة بعدد المصلين الذين لا يملئون صفا واحد بداخله، ولكن يبدو أن السلطات هناك منحتهم أرضا فقاموا بتشييد جامع عليها حتى لا تبقى فارغة. على كل منظر المسجد باد للعيان في كل الصور التي تلتقط لصخرة جبل طارق العظيمة، وهو أيقونة مهمة تذكر العالم على الأقل بهوية الرجل الذي أعطى اسمه للجبل .

خرجت من المطعم راجعا إلى المرقد وسط المدينة، عبر طريق ألفت شوارعه وأضوائه ومحلاته المفتوحة والمغلقة.. اللحظات الأخيرة من فترة السفر عادة ما يستثقلها المرء ويستسلم فيها إلى الرغبة في العودة بأقصى سرعة من حيث أتى، كما يفقد فيها القدرة على التحفز والتحمس للمزيد من التجوال أو الاستمتاع.. لم يبق أمامي في اليوم الموالي سوى الاستيقاظ الباكر للتوجه نحو محطة الحافلات والعودة إلى مالقة عبر الساحل الجنوبي لإسبانيا في رحلة متعبة دون شك..

العودة..

Le voyage c'est aller de soi a soi en passant par les autres

آخر يوم لي في مالقة وإسبانيا ككل كان يوم سبت 23 سبتمبر 2017 حيث بدأته صباحا باستكمال ترتيب أغراضي داخل الحقائب ومراقبة جواز سفري وهاتفي والشاحن ومبلغ المال المتبقي معي.. إنها الأشياء التي لا يجب أن تنساها في بلد أجنبي، وإلا تحولت رحلتك إلى ذكرى سيئة جدا، ولا أريد تكرار ما حصل معي في برشلونة قبل خمس سنوات، حين خرجت تحت جنح الظلام مبكرا ولم أشعل أضواء الغرفة لأتأكد من أخذ كل أغراضي مراعاة لعدم إزعاج النائمين، فنسيت نصفها هنالك.

دخلت أحد المقاهي في مالقة لتناول قهوة صباحية أخيرة وتوديع الشارع من موقع الجالس المتأمل في حركة الناس والسيارات والمدينة ككل.. تناولت إفطاري في هدوء ثم واصلت الطريق متجولا لآخر مرة

عبر المحلات لشراء بعض التحف التذكارية، وبعدها قصدت محطة الحافلات لركوب حافلتي المتوجهة إلى ألمرية وثمن تذكرتها (18 يورو).

وصلت المحطة خمس دقائق قبل موعد انطلاق الحافلة، ووضعت أمتعتي في مكانها المخصص، ثم صعدت إلى الداخل لأجلس في مكاني المبيّن على التذكرة. وانطلقت الحافلة بعد دقيقتين في موعدها المحدد تماما. كم جميل أن يتفق كل هؤلاء القوم هنا على احترام مواعيد الانطلاق والوصول في كل وسائل النقل المتوفرة، حيث يجعلك ذلك تسافر في طمأنينة وراحة بعيدا عن القلق والترقب.

كالعادة في الحافلات الأوروبية قد يضع القدر أمامك لقاءً غير متوقع مع شخص تقاطع مشوارك مع مشواره ولو لبعض الوقت ولا بأس عندئذ من استغلال لحظات التقاطع تلك في شيء من الدردشة وتبادل الأفكار والحديث.

كانت الطالبة الكندية التي جلست بجانبي قد أكملت تربصها في مدريد وجاءت إلى مالقة في عطلة نهاية الأسبوع لتمضية بعض الوقت في مدينة نيرخا على ساحل الشمس. سألتها عن الدراسة في كندا فقالت إنهم يدفعون أموالا مقابل الدراسة في الجامعة لكنها أموال يقترضونها دون فوائد ويرجعونها بعد حصولهم على العمل (كما يحدث مع الأونساج عندنا لكن بشكل آخر وأكثر فعالية كما يبدو) أخبرتني أيضا أنها تعمل بعض الساعات في صالة للعرض خارج

أوقات الدراسة وذلك لتوفير مصاريفها ومصاريف السفر كذلك.

السفر عند الغربيين مهم جدا في الحياة وهم لا يرونه من الكماليات غير الضرورية، بل يعملون لأجله طيلة عام كامل لأنه نافذتهم على الإنسان ومدرستهم التي يتعلمون ويكتشفون فيها شخصيتهم وحقيقتهم فالذهاب عند الآخر هو زيارة صادقة للذات.

سألتها عن اللغة الفرنسية قي مقاطعة الكيبيك التي تسكنها ومكانتها عند السكان، فقالت لي أن سكان الكيبيك يحبون هذه اللغة لذاتها ويبذلون الكثير من أجل الحفاظ عليها، بغض النظر عن علاقتهم بفرنسا أو الفرنسيين، وأنهم يفتخرون بفرنكوفونيتهم رغم نطقهم المضحك بكلماتها وحروفها.

سارت بنا الحافلة بمحاذاة الساحل المشمس، وفي كل مرة كنا ندخل بلدة سياحية صغيرة أو كبيرة ينزل أفراد ويصعد آخرون، فترى الحياة في الوجوه، وتسمع العالم عبر ألسنة مختلفة لا تكف عن الكلام تحت شمس كانت تدخل برفق من النوافذ وتجعل الساحل في الخارج يبدو جميلا في كل تفاصيله.

دخلت حافلتنا بعد ساعتين من السير محطة مدينة موتريل كي نأخذ قسطا من الراحة ونتناول شيئا من الأكل ونقضي حوائجنا المختلفة في ظرف نصف ساعة، وهذا التوقف القانوني يسري على أغلب الحافلات في أوروبا. التكييف أثناء الرحلة كان مناسبا

والمقعد مريح أيضا. لاحظت أن كل الظروف هنا مسخرة وميسرة لخدمة الإنسان وليس العكس، وأن هذا الأخير هو من يصنع ويضع نظامه وليس النظام من يكبله طوعا أو كرها.

واصلنا سيرنا واقترينا من مدينة ألمرية بعد أكثر من ثلاث ساعات ونصف من السير. كنت أرى من نافذتي أحيانا أقفاصا دائرية كبيرة داخل البحر لتربية الأسماك، وعلى شمالي جبال انتصبت فوقها مروحات شديدة العلو تدور مع الرياح لجني الطاقة. لكن ومع اقترابنا من مدينة «اليخيدو» المتاخمة لألمرية انتظرت أن أرى مشهدا لطالما التقيت به في الأشرطة والوثائقيات قبل أن تتاح لي الفرصة لأراه أمامي. فهنا أين ينتهي شاطئ البحر المتوسط يبدأ بحر من نوع آخر لكنه بلون أبيض ومن غير أمواج أو بواخر. إنه أكبر تجمع في العالم بأسره للبيوت البلاستيكية التي تزرع فيها كل أنواع الخضر والفواكه. هنا يمكنك مشاهدة شاحنات من كل الأحجام وغرف تبريد وخزانات ومستودعات في كل مكان. إنها مصنع ضخم يغذي أوروبا بأكملها في كل الفصول (يشتغل داخل هذه البيوت البلاستيكية عدد كبير من المهاجرين الأفارقة والمغاربة على الخصوص في ظروف أقل ما يقال عنها أنها صعبة وشاقة).

هذه هي إسبانيا بعيدا عن سطحية ألوان أقمصة الريال والبارصة، إنها بلد مجتهد في العمل يستثمر كل متر مكعب أو مربع منه، في السماء أو الأرض أو الماء لجني الأرباح وتحصيل المداخيل، وهو ما

يجب أن نتعلمه نحن الذين نسكن في أكبر بلد مطل على المتوسط وأكبر بلد إفريقي وعربي وعاشر بلد من حيث المساحة عالميا (علما أن كل البلدان التي تفوقنا مساحة هي دول كبرى بالضرورة ما عدا كازاخستان أو البرازيل بتحفظ).

وصلت إلى ألمرية في الوقت المبين على التذكرة تماما، فكانت بالنسبة لي (هذه المرة) مجرد عودة إلى مدينة أعرفها سلفا، حيث خرجت مباشرة من محطة الحافلات قاصدا أول فندق نزلت به حين وطأت قدماي الأرض الإسبانية قبل اثنا عشر يوما من الآن.

طلبت من عاملة الاستقبال في الفندق أن أترك أمتعتي عندها لبعض الوقت، وقد وافقت على الأمر مشكورة (هذه الخدمة في أوروبا ليست مجانية وتتم بمقابل مالي لكن ما خسر من طلب).

كانت المدينة شبه خالية من الناس بسبب عطلة نهاية الأسبوع لكن المحلات الكبرى مفتوحة وفيها حركة لا بأس بها للبيع والشراء. استغليت وقت المساء في شراء بعض المقتنيات بما تبقى لي من قطع نقدية.

تناولت عشائي عند مطعم باكستاني، قبل أن أتوجه إلى الفندق لاسترجاع أمتعتي والهبوط إلى ميناء المدينة لركوب الباخرة نحو وهران من جديد. أجمل ما في ميناء المدينة شعورك حين تدخله، أنك تلج مجرد مركز بريدي أو حديقة عمومية حيث لا وجود لذلك العدد

الهائل من أعوان وقوات الأمن (التي تشعرك بعدم الأمن من حيث تريد أن تزيد في إحساس المواطن بالأمن) ويقابلك بالداخل مطعم ومصلى صغير وقاعة انتظار نظيفة وجميلة، تصعد منها بعد إجراءات خفيفة (حتى لا أقول سخيفة) إلى سفينة تأخذك إلى جنوب ضفة هذا البحر.

صحيح أن هذه المظاهر عادية جدا ولا تستحق كل هذا التنويه، لكن معاناتنا المعتادة مع إجراءات السفر وقاعات الانتظار وظروف الاستقبال ونوعية الخدمات تجعلنا ننتبه إلى الفارق الموجود، تماما كما نقوم بروبورتاج متلفز حول الأحياء السكنية حين يقوم المواطنون بالحفاظ على نظافتها، أو الشباب الذين يتنازلون عن كرامتهم ويتجهون للعمل في جني المحاصيل الزراعية، أو عن قطار السابعة صباحا حين ينطلق من المحطة على السابعة صباحا يوم عيد الفطر أو الأضحى.

عند دخولي إلى الميناء كان الهدوء النسبي يعم المكان، ربما لأن شهر سبتمبر ليس شهر ذروة للمسافرين والحركة والتنقل. صليت المغرب والعشاء قصرا في مصلى صغير يمكنك أن تقصده حتى وأنت مقيم في وسط المدينة (لقرب المسافة ويسر الدخول) ثم توجهت لقاعة الانتظار.

كانت القاعة خالية من المسافرين تقريبا، وكانت في الميناء سفينتان لنفس الشركة الإسبانية، إحداهما تتجه إلى مدينة الناظور

والأخرى تتجه إلى وهران. مرت الساعة من التاسعة إلى العاشرة ببطء شديد قبل أن يتم فتح أبواب السفينة للراجلين مثلي، ودخلنا لنأخذ أماكننا في مقاعد السفينة، حيث استلقيت فوق أربع منها واتخذت منها شبه سرير، لعلّه يصيبني فوقه شبه نوم أو نعاس.

بعد ساعتين تقريبا، بدأت محركات السفينة الضخمة في الدوران، وخرجت إلى ظهر السفينة لألتقط آخر صورة للمدينة التي كانت ترقد في سكون تحت أسوار قصبتها المضاءة في ليلة صيفية مرصعة بالنجوم خالية من الغيوم.

كان عدد المطلّين من جسر السفينة قليلا، وربما كنت الوحيد من بينهم الذي لن أعود إلى هنا قبل وقت طويل، فجل الراكبين كانوا من المغتربين أو البرناسة الذين يأتون المدينة بشكل دوري، وهو ما يجعلهم يرونها بنظارات أخرى قد تكون أقرب إلى الملل والتعود الروتيني.

عدت إلى القاعة لأضع رأسي فوق حقيبة الظهر وأستسلم لمرور بعض الذكريات بذهني، حيث تعرفت على مناظر وتجولت في أماكن لم يخطر ببالي أنني سأزورها بهذه السرعة والسهولة، بعدما كنت أقرأ عنها وأتخيلها، أو في أحسن الأحوال أشاهدها عبر الأشرطة الوثائقية، والواقع أنها بقدر ما كانت ساحرة في الصور فقد كانت أجمل في الواقع.

تحركت السفينة مبتعدة عن الضفة الإسبانية، وأبحرت كما تصورتها فوق خريطة صغيرة، على مسافة لا تزيد عن تلك التي تفصل العاصمة عن واد الفضة أو وهران عن مغنية.

لم أتمكن من النوم طيلة الساعات التي كانت تفصلنا عن أضواء الفجر فوق بحر البوران، لكن وقبل ثلاث ساعات من الوصول بدأت تترائى لنا أضواء اليابسة الجزائرية ومدينة بني صاف تحديدا، وقد خرجت إلى جسر السفينة لرؤية المنظر، وبقيت هناك لأشاهد ضوء منارة جزيرة ليلى برشقون، وبعدها مدينة عيون الترك التي يبدو لك ساحلها كبيرا وواسعا من البحر قبل أن يفصح ضوء النهار عن ظهور مباني مدينة وهران في الأفق ومن فوقها حصن سانتا كروز المستقر فوق جبل المرجاجو.

رست السفينة في ميناء وهران بسلام وانتظرت أن تخرج السيارات من جوف السفينة إلى رصيف الميناء بينما توضع لنا سلالم خاصة بنا نحن الراجلون كي نخرج منها، لكن إن كان الأمر هكذا في فرنسا وإسبانيا حيث يخرج المرء من الباب الضيق، فإنك في البلد ستخرج من الباب الكبيرة الواسعة .. مع السيارات وضجيج محركاتها وأصوات أبواقها ودخانها.

كنت أول من خرج من السفينة وأول من مرّ عبر الشرطة وتفتيش الجمارك لأجد نفسي خارج الميناء بعد عشر دقائق، وفي مواجهتي عشرات السائقين من أصحاب سيارات الأجرة يهتفون ويصيحون بي

كي أركب معهم. طبعا لن يخبرك أي منهم بسعر التوصيلة، فهم يريدون أولا الاستفراد بك ووضع أمتعتك داخل السيارة، وبعدها سيقنعونك بالسعر الذي يناسبهم سواء بالدفع الطوعي أو بالتخلي المكره عن المبلغ المطلوب بعد ممارسة تقنيات الإلحاح التي يجيدونها.

وضعت لأول سائق هب ناحيتي شرطا مسبقا قبل أي حديث وقلت له لا أملك إلا خمسمائة دينار خذهم أو دعني أذهب إلى المنزل سيرا على الأقدام.

بعد عشر دقائق، كنت أمام باب منزلي وقد نزلت من السيارة وناولت صاحبها المبلغ الموجود، وكان ذلك آخر مشهد دونته حول رحلتي إلى ما يسمى بالفردوس المفقود قبل العودة إلى أجواء حياتي وعملي الروتيني في بلدي العزيز أو الفردوس الموعود..

انتهى

ينقلنا سفيان مقنين إلى الفضاء الإسباني بلغة تشبه أناقة هذا الفضاء، وذكاء لمّاح في رصد اللحظة في أبعادها الجغرافية والتّاريخية والإنسانية، بما يجعلنا نستمتع بكل جملة نقرأها من رحلته الأندلسية.

الناشر

”

سبق لي أن مررت بإسبانيا في رحلة خاطفة قبل خمس سنوات ولم تنضج في رأسي فكرة أن أزورها مرة ثانية إلا بعد أن اقتربت منها جغرافيا باستقراري في وهران (أن تكون في العاصمة الجزائرية فذلك يعني أن شمال المتوسط بالنسبة لك هو فرنسا) واقتربت مني وجدانيا عبر عديد الكتب التي أصبحت أجد متسعا من الوقت لمطالعتها هنا والمتعلقة بتاريخ الفردوس المفقود: الأندلس. لذلك قررت أن أسافر لزيارة بلد نشترك معه في تاريخ طويل ربما كان برائحة الدماء والبارود أحيانا، لكنه جدير بالزيارة على الأقل من الناحية السياحية وهو الغرض من السفر في النهاية.

“

ISBN 978-9931-677-25-3

